الفصل الثاني

الدعوة إلى الله بالحكمة في ضوء القرآن والسنة

المبحث الأول
أهمية الموضوع

تظهر أهمية موضوع الحكمة من خلال التأمل في العناصر الآتية:

١ - أن لفظ الحكيم " ورد في القرآن الكريم عشرات المرات [١].

٢ - الحكيم اسم من أسماء الله تعالى.

٣ - أن الله قد أمر بالحكمة فقال - سبحانه: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥].

٤ - أن الله أثنى على صاحب الحكمة، فقال: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وامتن الله على لقمان حيث آتاه الحكمة فقال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ [لقمان: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [يوسف: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة: ٢٥١]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

٥ - أن الحكمة هي: الفقه في دين الله، كما فسرها كثير من السلف، الرسول ﷺ يقول: «**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين**» [٢].

٦ - أن الحكمة ضالة المؤمن، متى وجدها فهو أحق بها.

٧ - أن الرسول ﷺ دعا لابن عمه - عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فقال: «**اللهم علمه الحكمة**» [٣].

٨ - أن مدار نجاح الدعوات على الحكمة.

٩ - أن الصحوة الإسلامية في يقظتها المعاصرة أحوج ما تكون إلى الحكماء.

١٠ - أن بعض المواقف والأعمال التي قامت بها الجماعات الإسلامية، وبعض الدعاة

---

(١) حكيم ٨١ مرة وحكيما ١٦ مرة.
(٢) البخاري٧١ ومسلم١٠٣٧ عن معاوية رضي الله عنه.
(٣) البخاري ٣٧٥٦.

كانت تفتقر إلى الحكمة ، كالدخول في معارك عسكرية مع الأنظمة ، حتى وإن كانت كافرة[1] ، وقد جرّت مثل هذه الأعمال على أمتنا عموماً وعلى الدعاة خصوصاً الويلات ومثل ذلك أسلوب الاغتيالات ، أو إحراق أماكن الفساد في بلد لا يملك فيه المسلمون السلطة وكل ذلك بسبب عدم الحكمة الناشئ من الجهل في فهم النصوص ودلالاتها .

ومن خلال ما بينت تتضح لنا أهمية الحكمة والحديث عنها في ضوء القرآن والسنة .

ولقد ورد للحكمة عدة معانٍ ما بين خاصة وعامة .

* * * * *

(١) وهذا لا يعني إبطال الجهاد ، فالجهاد ماض إلى يوم القيامة ، ولكن الجهاد له شروطه وأسبابه ، وأحكامه .

المبحث الثاني
معنى الحكمة

المعنى اللغوي للحكمة :

قال ابن فارس: الحاء والكاف والميم فصل واحد، وهو: المنع، وأول ذلك الحكم، وهو المنع من الظلم، وسميت حكمة الدابة؛ لأنها تمنعها.

وقال ابن منظور:قيل الحكيم: ذو الحكمة، والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها: حكيم[١].

وقال في تاج العروس: الحكمة بالكسر - العدل في القضاء كالحكم، والحكمة العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه، والعمل بمقتضاها، وبهذا انقسمت إلى علمية وعملية، ويقال: هي هيئة القوة العقلية العلمية، وقيل: الحكمة: إصابة الحق بالعلم والعمل. فالحكمة من الله: معرفة الأشياء، وإيجادها على غاية الإحكام، ومن الإنسان: معرفته، وفعل الخيرات، وأحكمه: منعه من الفساد[٢].

هذه أهم المعاني اللغوية التي وردت في الحكمة وأصلها وكلها يدور حول المنع لأنها تمنع صاحبها من الوقوع فيما يذم فيه أو ما قد يندم عليه وتمنعه من اختيار المفضول دون الفاضل، أو المهم قبل الأهم.

٢ - أهمية الحكمة في الدعوة:

يقول الله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: ٢٦٩]، إذا فالحكمة منة، ونعمة عظيمة من الله تعالى - يمن بها على من يشاء من عبادة، وهي من الأشياء التي يمكن اكتسابها بالمراس والمران ،ويعرف ابن القيم - رحمه الله تعالى - الحكمة بأنها : (فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي)[٣].

---

(١) لسان العرب مادة حكم(١٥/ ٣٠).
(٢) تاج العروس مادة حكم ٨/ ٣٥٣.
(٣) مدارج السالكين.

يقول ابن سعدي - رحمه الله - في تفسير : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥] ، أي كل أحد على حسب حاله وفهمه ، وقبوله وانقياده ، ومن الحكمة ، الدعوة بالعلم لا بالجهل ، والبداءة بالأهم فالأهم ، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم ، وبما يكون قبوله أتم ، وبالرفق واللين ، فإن انقاد بالحكمة ، وإلا فينتقل معه إلى الدعوة بالموعظة الحسنة ، وهو الأمر ، والنهي المقرون بالترغيب والترهيب . . .

إذاً فالحكمة في الدعوة أمر مطلوب ، والداعي إلى الله مأمور بتوخي الحكمة حين دعوته ومصداق ذلك قول الله - تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥] ، وقوله - سبحانه: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف: ١٠٨] .

وحينما طبق الصحابة - رضوان الله عليهم - الحكمة في دعوتهم ، وساروا على هدي المصطفى ﷺ ونهجه دخل الناس في الإسلام أفواجا ، وانتشر الإسلام في بقاع الأرض .

لكن لا يُفهم من الحكمة في الدعوة أنها تعني الرفق ، والحلم مع المدعو فحسب ، بل إن مراتب الحكمة تتجاوز ذلك كثيراً .

فمن الحكمة أن يكون الداعي رفيقاً ليناً مع المدعوين كما قال - تعالى - عن نبيه ﷺ : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ، وقال - سبحانه - مخاطباً موسى وهارون - عليهما السلام: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه: ٤٣ - ٤٤] ، من الحكمة أحياناً استخدام الشدة والتأنيب أحياناً ، ذلك لأن الحكمة تعني وضع كل شيء في موضعه ، فهي لين في وقت اللين ، وشدة في وقت الشدة . يقول الله - تعالى - على لسان موسى - عليه السلام - مخاطباً فرعون لما طغى وتكبر : ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الإسراء: ١٠٢] ، ويقول - تعالى - : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [التوبة: ٧٣] ، وإن من الحكمة أيضاً أن يكون الداعي قدوة في قوله وفعله ، يقول الله - تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ

مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف: ٢ - ٣] . ومن أصول الحكمة مراعاة حال المدعوين ، إذ ليس من الحكمة استخدام أسلوب واحد في الدعوة مع الكبير والصغير ، والرجل والمرأة ، والمتعلم والجاهل ، والرئيس والمرؤوس ، والهادئ والغضوب ، بل لا بد من تنويع أسلوب المخاطبة كل بما يناسبه . يقول - تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤] .

إن الداعي الناجح هو الذي يعطي كل إنسان ما يلزمه من أفكار وتوجيهات ، ويحاول أن يقنعه بالأسلوب الذي يناسبه ، ويناسب مداركه .

يقول سماحة الشيخ ابن باز - رحمه الله: (ومن الحكمة إيضاح المعنى وبيانه بالأساليب المؤثرة التي يفهمها المدعو وبلغته التي يفهمها حتى لا تبقى عنده شبهة ، وحتى لا يخفى عليه الحق بسبب عدم البيان ، أو بسبب عدم إقناعه بلغته ، أو بسبب تعارض بعض الأدلة ، وعدم بيان المرجح ، فإذا كان هناك ما يوجب الموعظة وعظ وذكر بالآيات الزواجر ، والأحاديث التي فيها الترغيب والترهيب ، حتى ينتبه المدعو ، ويرق قلبه ، وينقاد للحق ، فالمقام قد يحتاج فيه المدعو إلى موعظة وترغيب وترهيب على حسب حاله ، وقد يكون مستعداً لقبول الحق ، فعند أقل تنبيه يقبل الحق ، وتكفيه الحكمة ، وقد يكون عنده بعض التمنع ، وبعض الإعراض فيحتاج إلى موعظة وإلى توجيه وإلى ذكر آيات الزجر)[1] .

٣ - ومن مراتب الحكمة :

المجادلة بالتي هي أحسن من ضرب الأمثلة ، وبيان الحق بالأدلة العقلية والنقلية ، وإعطاء الحجج الصادقة ، ونقض الحجج الباطلة ، مع تحري الوصول إلى الحق ، يقول الله - تعالى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦] . وليحذر الداعي أن يتحول قصده من الدعوة إلى إظهار التفوق في النقاش ، أو الغلبة في الجدل ، ولكن ليكن القصد والغاية الإقناع والوصول إلى الحق .

كما أن من أعلى المراتب التي يجب أن يتحلى بها الداعي إلى الله دفع السيئة بالحسنة ، وهي مرتبة رفيعة لا ينالها إلا فئة نالت حظاً عظيماً كما قال - سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ

---

(١) من أقوال الشيخ ابن باز في الدعوة ص/ ٦٤ .

﴿الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٤ - ٣٥]، وفي جميع الأحوال يجب على الداعي قول الحق، والصبر على الأذى، صبر المؤمنين العاملين، لا صبر الخانعين المستسلمين[1]، وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه - قال: «**بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في المنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم أو نقول بالحق حيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم**»[2].

* * * * *

(١) شبكة الفجر في القرآن الكريم.

(٢) رواه البخاري.

المبحث الثالث
الحكمة في القرآن الكريم

ورد لفظ الحكمة في القرآن الكريم عشرين مرة في تسع عشرة آية، في اثنتي عشرة سورة، وقد ورد لعدة معاني: واختلف المفسرون في تفسير الآيات الواردة في لفظ الحكمة، فنجد مقاتل - كما ذكر الرازي - يقول: تفسير الحكمة في القرآن على أربعة أوجه:

أولها: مواعظ القرآن:

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وثانيها: الفهم والعلم:

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ [مريم: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ [لقمان: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ [الأنعام: ٨٩].

ثالثها: النبوة:

في قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

رابعها: القرآن بما فيه من عجائب الأسرار:

في قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

* وقال ابن كثير: قال علي بن طلحه عن ابن عباس رضى الله عنه: يعني المعرفة بالقرآن، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله

وحرامه ، وأمثاله[١] .

* وقال أيضاً: روي عن ابن عباس مرفوعاً: الحكمة القرآن ، يعني تفسيره .

وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩] .

ليست بالنبوة ، ولكنه العلم والفقه والقرآن . وقال إبراهيم النخعي: الحكمة: الفهم .

* وقال أبو مالك: الحكمة: السنّة .

* وقال زيد بن أسلم:الحكمة: العقل .

* وقال مالك: وإنه ليقع في قلبي أن الحكمة هي:" الفقه في الله ، وأمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله" .

* وقال عبد الرحمن السعدي مفسراً للحكمة: "الحكمة هي: العلوم النافعة والمعارف الصائبة ، العقول المسددة ، والألباب الرزينة ، وإصابة الصحة في الأقوال والأفعال ثم قال: وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة التي هي: وضع الأشياء مواضعها ، وتنزيل الأمور منازلها ، والإقدام في محل الإقدام والإحجام في موضع الإحجام[٢] .

* وقال القاسمي في تفسير الحكمة: قال كثيرون :الحكمة: إتقان العلم والعمل ، وبعبارة أخرى:معرفة الحق والعمل به[٣] .

* وقال رشيد رضا مفسراً الحكمة: التمييز بين ما يقع في النفس من الإلهام الإلهي والوسواس الشيطاني[٤] .

* أما ابن عاشور فقد قال: وفسرت الحكمة بأنها معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه بما تبلغه الطاقة ، أي: بحيث لا تلتبس الحقائق المتشابهة بعضها مع بعض ولا يُغلط في

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٣٢٢ .
(٢) تفسير ابن السعدي ١/ ٣٣٢ .
(٣) انظر تفسير القاسمي ١/ ٢٤٥ .
(٤) المنار ٣/ ٧٥ .

العلل والأسباب[١]، ونختم بما قاله الشيخ سيد قطب رحمه الله في تفسيره بأنها: القصد والاعتدال، وإدراك العلل والغايات، والبصيرة المستنيرة التي تهديه للصالح الصائب من الحركات والأعمال[٢].

- ونستطيع أن نقول: إن المفسرين فسروا الحكمة بتفسيرين: الأول: النبوة.
- الثاني: العلم والإتقان، والتوفيق، والبصيرة، والعمل الصائب، ومنع الظلم، ووضع الشيء في موضعه، وكلها معان متقاربة.

أمثلة من الحكمة في القرآن الكريم:

١ - قصة أصحاب الكهف:

إن قصة أصحاب الكهف قصة عجيبة، ولن أقف عند تفصيل القصة ولكن أريد أن أشير إلى موقف الحكمة في تصرف هؤلاء الفتية وقدرتهم على تجاوز المحنة التي مروا بها.

ذكر ابن كثير نقلاً عن غير واحد من السلف والخلف أن هؤلاء الفتية كانوا من أبناء ملوك الروم وساداتهم وقد فارقوا قومهم لما رأوا منهم عبادة غير الله حيث كانوا يعبدون الأصنام والطواغيت ويذبحون لها، ولهم ملك جبار عنيد، فاتفقوا على اعتزال قومهم، واتخاذ مكان بعيد يعبدون الله فيه، فأحضرهم الملك بين يديه وسألهم عن أمرهم وما هم عليه، فأجابوه بالحق، ودعوه إلى الله وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾ [الكهف: ١٤].

وفي النهاية ما كان من الملك إلا أن رفض دعوتهم وتوعدهم حتى يرجعوا إلى دين قومهم، وأعطاهم مهلة لينظروا في أمرهم، وبعد ذلك اجتمعوا وقرروا الفرار بدينهم مرة أخرى إلى مكان آخر، وهو الكهف الذي لجأوا إليه وتظهر الحكمة في قصتهم لما يلي:

- أن هدايتهم إلى دين الله، وعدم تقليد قومهم فيما هم عليه هو عين الحكمة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.
- اعتزالهم لقومهم بعد أن أدركوا أنه لا ينفع معهم نصح ولا دعوة، وهذه هي

---

(١) التحرير والتنوير ٣/ ٦١.
(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣١٢.

العزلة المشروعة، وبخاصة عند وقوع الفتن أو الخشية منها، وهذا مصداق الحديث الصحيح: «**يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شغف الجبال ومواقع القَطْر[1] يفر بدينه من الفتن**»[2].

صمودهم للحق عند مواجهتهم للباطل:

العزلة الثانية كانت عزلة سرية، لأن العزلة الأولى كانت عزلة دون تخوف، أما العزلة الثانية فكانت سرية لا يُعلم مكانهم لما قد يترتب على ذلك من مفاسد: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾ [الكهف: ٢٠].

حكمتهم في قضاء حوائجهم: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٩].

إن هذه القصة قصة عجيبة فيها الحكمة، والعبرة، وبيان منهج الدعوة وحسن استخدام الوسائل، وتقدير المصالح والمفاسد، ومعرفة ما آلت إليه الأمور، إلى غير ذلك من الدروس والعبر.

٢ - قصة سليمان وملكة سبأ:

سنقتصر في هذه القصة على النص القرآني الذي نقف عنده على بعض المواقف التي نلتمس فيها الحكمة في التصرف في اتخاذ القرار.

أول موقف نراه هو عناية سليمان لرعيته وتفقده لأحوالهم: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [النمل: ٢٠].

سليمان عليه السلام لا يتعجل في الحكم على غياب الهدهد، ولكن وضع الاحتمال الأول في السؤال عن السبب في عدم رؤيته، فقد يكون موجوداً ولكن سليمان لم يره لسبب من الأسباب: ﴿فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠].

إنه المنهج لعدم العجلة قبل اتخاذ القرار.

---

(١) المطر.

(٢) سنن أبي داود كتاب الفتن والملاحم٣٧٢٢.

وعندما تأكد سليمان أنه كان غائباً أصدر القرار العادل: ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [النمل: ٢١] .

العذاب الشديد ، أو الذبح ، أو البراءة ، وهي التي تنجيه من إحدى هاتين العقوبتين بشرط أن يجيء بسلطان مبين ، فسليمان عليه السلام لم يغر بملكه وقوته وقدرته ، ليتسلط على هذا المخلوق الضعيف ، لماذا؟ لأنه يعلم قدرة الله عليه . وبعد أن ثبتت براءة الهدهد بأن جاء بسلطان مبين: ﴿ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل: ٢٢] .

إنه منهج للعدل ، وأسلوب في القيادة يندر لـه المثيل .

يسمع سليمان عليه السلام خبر سبأ كما حكاه الهدهد ، والخبر في غاية الأهمية ، إنه خبر يزلزل الجبال ، ملك قوي ، عرش عظيم ويعبدون غير الله ، كل هذا وهم في جوار سليمان ، فقد يهددون ملكه ذات يوم ، ومع هذا فلا يتعجل عليه السلام ويلتزم منهج التثبت ، مع أنه يعلم أن الهدهد أقل من أن يكذب عليه وبخاصة أن الهدهد بحاجة إلى براءة ساحته بعد تخلفه وغيابه ، فمن المستبعد أن يضيف إلى جانب ذلك جريمة لا تغتفر ، فإذا كانت عقوبة الغياب بدون إذن هو العذاب أو القتل ، فماذا ستكون عقوبة الكذب؟! المهم أن سليمان عليه السلام ما أخذته العاطفة وظل ملتزماً بمنهج التثبت ، ﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [النمل: ٢٧] ، وهذا عين الحكمة وأساسها .

ويكتب سليمان الرسالة بأسلوب عجيب ، حتى مع أعدائه ، أسلوب رائع حكيم ، يقتحم شغاف القلوب ويسيطر عليها مع إيجاز وقوة وبيان: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النمل: ٣٠ - ٣١] .

وعندما يسمع المرء خبر الهدهد وأن هؤلاء القوم تتزعمهم امرأة ، يتساءل: أليس فيهم رجال؟! ، ولكن عندما يرى كيف كانت هذه المرأة تقود قومها بالحنكة والسياسة والحكمة لا يستغرب ذلك ويدرك سر ذلك الاختيار[1] ؛ ولننظر إلى شيء من حكمتها في قيادة قومها:

أ - فهي تلتزم منهج الشورى وتسلكه ، ولا تقطع أمراً دون عقلاء قومها: ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا

(١) وتولية المرأة الإمامة العظمى غير جائز عند جماهير العلماء وهو الراجح ، ولكن هؤلاء القوم كانوا كفاراً ، وليس بعد الكفر ذنب .

﴿ ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النمل: ٣٢] .

ب - عندما فوضها القوم باتخاذ القرار المناسب كانت حكيمة وعاقلة لم تستخف بقوة سليمان ، ولم يدخلها الغرور بقول قومها: ﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [النمل: ٣٣] ، بل كان رأيها الصائب وموقفها الحكيم: ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [النمل: ٣٤] ، ولهذا كان لابد لها من اتخاذ خطوة عملية تكشف حقيقة العدو قبل الدخول في معركة قد تكون خاسرة: ﴿ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النمل: ٣٥] .

ونستمر مع هذه التصرفات الحكيمة ، والقرارات الصائبة ، حيث جاء جواب سليمان على رسالتها - الهدية: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النمل: ٣٦ - ٣٧] .

الآن نقارن بين الرسالة الأولى للدعوة في رقتها ، ولينها ، وقوتها ، وبين هذه الرسالة الثانية في صرامتها وحزمها وبلاغة أسلوبها ، وهذه هي الحكمة ؛ وضع الشيء في موضعه ، ولقد فعل سليمان عليه السلام ما ينبغي كما ينبغي ، في الوقت الذي ينبغي ، فقد آتاه الله الملك والحكمة كما آتى أباه عليهما السلام .

وأخيراً تتخذ المرأة القرار الحاسم الحكيم ، الذي يعجز عن اتخاذه كثير من الرجال بسبب الهوى والتعصب والتقليد ، إنه قرار الاستجابة لسليمان ، ودعوته طائعة مختارة .

أما غاية الحكمة وذروتها في موقف سليمان عليه السلام مما حدث فهل داخله الغرور والعجب من نفسه - حاشاه من ذلك - بل قال: ﴿ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠] .

أحبائي في الله: ما أحوجنا إلى تأمل هذه القصة والاستفادة منها بجميع أطرافها: سليمان عليه السلام ، ملكة سبأ ، الهدهد وإليك إبراز مواطن الحكمة في هذه القصة من خلال ما يلي:

- العدل .
- التثبت .
- بُعد الرؤية ، وسعة الأفق .
- إتقان قاعدة المصالح والمفاسد ؛ وهذا أمر مهم جداً في مسألة الدعوة إلى الله ، مع العلم بأن درء المفاسد أوجب من جلب المصالح .
- القوة بدون عنف ، واللين بدون ضعف .
- أداء المسئولية على وجهها .
- الشورى .
- نسبة الفضل لأهله .
- التنبه والحذر من الاستدراج .
- القوة في اتخاذ القرار في الوقت المناسب .
- الهدهد وما كان من أمره في التقصي والبحث والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، فقد كان سبباً في إدخال هذه الأمة الكبيرة في دين الله عز وجل ، فهلاَ دعونا إلى الله وحملنا هم الدعوة وأمر تبليغها إلى غير المسلمين وتذكير المسلمين المقصرين فيها ، ونسأل الله الهداية لنا وللجميع .

٣ - هدهد التوحيد :

طائر التوحيد والعقيدة..

نعم ذلك الطائر الغيور على توحيد الله وإفراد الرب تبارك وتعالى بالعبادة . . لا تسألوا عن نسبه أو عن شرفه أو حتى عن قبيلته !!

ولا تسألوا عن لون بشرته !!

ولا حتى عن مظهره وشكله وجماله !!

ذلك الطائر هو : "هدهد التوحيد" .

هذا هو نسبه، وذلك هو شرفه، "هدهد التوحيد" كما سُمي سلمان الفارسي "ابن الإسلام". قصَّ الله تبارك وتعالى علينا قصته ومحاورته مع نبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام وسأكتفي في هذه القصة بما جاء في كتاب الله تبارك وتعالى؛ لأنه هو الهدى والنور والشفاء، ولن أتعرض للإسرائيليات الواردة في التفاسير فهي كثيرة، ولا تهم، إذ المهم للمؤمن هو أن ينشغل بكلام الله تبارك وتعالى وما أُبهم من كلام الله مما لم يرد فيه نصٌّ صحيح، فلا داعي للانشغال بهذا النوع من الفضول من العلم، وقد ذمَّ الله تبارك وتعالى التكاثر حين أصبحَ ملهاةً ومشغلة عن المقصود. وفي هذا المقام أذكر ما قاله ابن كثير - يرحمه الله - : " والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب، مما يوجد في صحفهم، من أخبار بني إسرائيل، من الأوابد والغرائب والعجائب، مما كان وما لم يكن، ومما حرف وبدل ونسخ. وقد أغنانا الله، سبحانه، عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ، ولله الحمد والمنة"[1] قال العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله - (فهذا ما قصه الله علينا من قصة ملكة سبأ وما جرى لها مع سليمان، وما عدا ذلك من الفروع المولدة والقصص الإسرائيلية فإنه لا يتعلق بالتفسير لكلام الله وهو من الأمور التي يقف الجزم بها، على الدليل المعلوم عن المعصوم، والمنقولات في هذا الباب كلها أو أكثرها ليس كذلك، فالحزم كل الحزم، الإعراض عنها وعدم إدخالها في التفاسير. والله أعلم)[2].

نص القصة مع توضيح شيء من معانيها :

أخبر تبارك وتعالى أن سليمان عليه الصلاة والسلام تفقدَ الطير وهو الهدهد ولم يجده، فقال : لأعذبنه عذاباً شديداً؛ لأنه تغيب ولم يخبرني بتغيبه، أو ليأتي إليَّ بدليل مقنع يبين فيه عذره، ثم لم يمكث طويلاً حتى جاء "هدهد التوحيد" فقال مباشرة لنبي الله : لقد أحطتُ بما لم تحط به حيثُ ذهبتُ إلى سبأ وجئتكَ بنبأ يقين وهو أني رأيت امرأة تملكهم وأوتيت من كل ما يحتاجه الملوك من العظمة والفخامة، ولكني وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله تبارك وتعالى؛ حيثُ زيَّن لهم الشيطان هذه الأعمال وصدهم عن سبيل التوحيد وتفريد الرب تبارك وتعالى بالسجود وأنواع الطاعات والقربات.

---

(١) تفسير ابن كثير - ج ٦ / ص ١٩٧.

(٢) تفسير السعدي - ج ١ / ص ٦٠٥.

ثم وكله سليمان عليه السلام بإبلاغ الخطاب بعد أن افتتحه بالبسملة التي اشتملت على جملة من صفات الرب تبارك وتعالى، ثم قال بعد البسملة : ألاَّ تعلوا عليَّ وأتوني مسلمين . وهذا الخطاب في غاية الوجازة مع البيان التام فإنه تضمن نهيهم عن العلو عليه، والبقاء على حالهم التي هم عليها والانقياد لأمره والدخول تحت طاعته، ومجيئهم إليه ودعوتهم إلى الإسلام، وفيه استحباب ابتداء الكتب بالبسملة كاملة وتقديم الاسم في أول عنوان الكتاب، ثم أخبر سليمان الهدهد بأنه إذا ألقى لهم هذا الخطاب أن ينظر ماذا يردونَ عليه في هذه الدعوة فقال لـه : ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [النمل: ٢٨] . ثم وصل الخطاب إلى الملكة وقالت لقومها بعد أن جمعتهم ودارت بينها وبين قومها هذا الحوار: ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النمل: ٢٩ - ٣٥] ،وهكذا بعد أن قرروا في هذا الاجتماع الطارئ أن يرسلوا لنبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام بهدية !! وذلك حرصاً منهم عن أن يتنازل عن دعوته وتوحيده وعقيدته، لعله أن يطمع في هذه الهدية ويسكت عنها، وهكذا فأهل الباطل يستعملون هذا النوع لغسل عقل الإنسان يغروه بالدنيا وبالمال أو بالزوجة ونحو ذلك ليصدوه عن عقيدته وعن دعوته للتوحيد، وقد حصلَ هذا مع نبينا محمد ﷺ حينما جاءه كفار قريش فقالوا لـه :[إن كنت تريد بما جئت به مالاً ؛ جمعنا لك من أموالنا ؛ حتى تصبح أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد بما جئت به جاهاً ؛ سودناك علينا فلا نقطع أمراً دون أن نستشيرك، وإن كنت تريد ملكاً ؛ ملكناك علينا فتصير ملك مكة، وإن كان هذا الذي يحدث لك شيئاً من الجن ؛ طلبنا لك الطب ونذرنا فيه أموالنا حتى تشفى، وإن كنت تريد أن تتزوج امرأة جميلة زوّجناك أجمل فتيات قريش] .

قال ابن سعدي رحمه الله: [دل هذا على كمال عزمه وحزمه وحسن تنظيمه لجنوده وتدبيره بنفسه للأمور الصغار والكبار، حتى إنه لم يهمل هذا الأمر وهو تفقد الطيور والنظر: هل هي موجودة كلها أم مفقود منها شيء؟ وهذا هو المعنى للآية . ولم يصنع شيئاً

من قال: إنه تفقد الطير لينظر أين الهدهد منها ليدله على بعد الماء وقربه، كما زعموا عن الهدهد أنه يبصر الماء تحت الأرض الكثيفة، فإن هذا القول لا يدل عليه دليل بل الدليل العقلي واللفظي دال على بطلانه، أما العقلي فإنه قد عرف بالعادة والتجارب والمشاهدات أن هذه الحيوانات كلها، ليس منها شيء يبصر هذا البصر الخارق للعادة، ينظر الماء تحت الأرض الكثيفة، ولو كان كذلك لذكره الله لأنه من أكبر الآيات.

وأما الدليل اللفظي فلو أريد هذا المعنى لقال: " وطلب الهدهد لينظر له الماء فلما فقده قال ما قال " أو " فتش عن الهدهد " أو: " بحث عنه " ونحو ذلك من العبارات، وإنما تفقد الطير لينظر الحاضر منها والغائب ولزومها للمراكز والمواضع التي عينها لها. وأيضا فإن سليمان عليه السلام لا يحتاج ولا يضطر إلى الماء بحيث يحتاج لهندسة الهدهد، فإن عنده من الشياطين والعفاريت ما يحفرون له الماء، ولو بلغ في العمق ما بلغ. وسخر الله له الريح غدوها شهر ورواحها شهر، فكيف - مع ذلك - يحتاج إلى الهدهد؟" وهذه التفاسير التي توجد وتشتهر بها أقوال لا يعرف غيرها، تنقل هذه الأقوال عن بني إسرائيل مجردة ويغفل الناقل عن مناقضتها للمعاني الصحيحة وتطبيقها على الأقوال، ثم لا تزال تتناقل وينقلها المتأخر مسلماً للمتقدم حتى يظن أنها الحق، فيقع من الأقوال الردية في التفاسير ما يقع، واللبيب الفطن يعرف أن هذا القرآن الكريم العربي المبين الذي خاطب الله به الخلق كلهم عالمهم وجاهلهم وأمرهم بالتفكر في معانيه، وتطبيقها على ألفاظه العربية المعروفة المعاني التي لا تجهلها العرب العرباء، وإذا وجد أقوالاً منقولة عن غير رسول اللهﷺ ردها إلى هذا الأصل، فإن وافقته قبلها لكون اللفظ دالاً عليها، وإن خالفته لفظاً ومعنى أو لفظاً أو معنى ردها وجزم ببطلانها، لأن عنده أصلاً معلوماً مناقضاً لها وهو ما يعرفه من معنى الكلام ودلالته.

والشاهد أن تفقد سليمان عليه السلام للطير، وفقده الهدهد يدل على كمال حزمه وتدبيره للملك بنفسه وكمال فطنته حتى فقد هذا الطائر الصغير[1].

فعند وصول هذه الهدية لنبي الله سليمان عليه السلام تذكرَ ما أعطاه الله سبحانه وتعالى

---

(١) تفسير السعدي - (ج ١ / ص ٦٠٢).

من النعم والخيرات وتسخير الجن والإنس والطير وتعليم الله له منطق الطير ولغاتها قال بعد أن تذكر هذه النعم وعلى رأسها نعمة التوحيد والهداية والإيمان لعبادة الرحمن وترك عبادة الهوى والشيطان قال عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النمل: ٣٦] . لأنكم تحبون الدنيا ، وتعيشون من أجلها .

وهكذا نبينا عليه الصلاة والسلام لما رغبه كفار قريش في الدنيا وخوفوه من مخالفتهم قال لعمه: «**يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر – حتى يظهره الله أو أهلك فيه – ما تركته**» فليس هدف الأنبياء الدنيا والسلطان والجاه وإنما هدفهم إعلاء كلمة الله تعالى .

ثم أمر سليمان عليه السلام بإرجاع الهدية إليهم وتوعدهم على عدم استجابتهم له حين قال لهم في رسالته التي أرسلها مع " هدهد التوحيد " : ﴿ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النمل: ٣١] . ومما توعدهم به لعدم استجابتهم لدعوة التوحيد والاستسلام لله تبارك وتعالى أنه قال له: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النمل: ٣٧] ، ولكن هذه المرحلة جاءت بعد الدعوة الكلامية ، فهو عليه الصلاة والسلام لم يبغتهم بالقتال ولم يفجأهم به ، بل أرسل لهم الدعوة بالإسلام أولاً . ثم قال سليمان عليه السلام لجنوده: ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [النمل: ٣٨] . وقد أخبره الهدهد أنَّ لها عرشاً عظيماً حين قال: ﴿ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النمل: ٢٣] .

ثم انبرى لطلب سليمان عليه السلام بالإتيان للعرش اثنان :

أما الأول : فهو عفريتٌ من الجن وهو القوي النشيط من الجن وقال له : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النمل: ٣٩] .

فالظاهر أن سليمان إذ ذاك في الشام فيكون بينه وبين سبأ نحو مسيرة أربعة أشهر شهران ذهاباً وشهران إياباً ، ومع ذلك يقول هذا العفريت: أنا ألتزم بالمجيء به على كبره وثقله ، وبعده قبل أن تقوم من مجلسك الذي أنت فيه . والمعتاد من المجالس الطويلة أن تكون معظم

الضحى نحو ثلث يوم هذا نهاية المعتاد، وقد يكون دون ذلك أو أكثر[١].

وأما الثاني: فهو الذي وصفه الله تعالى بأنه الذي عنده علمٌ من الكتاب حيثُ قال: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠].

فلما جاء الذي عنده علم من الكتاب بالعرش توجه نبي الله سليمان عليه السلام بحمد الله تبارك وتعالى وعلمَ أنَّ هذا من فضل الله تعالى عليه فأسندَ النعمة إلى ربه تبارك وتعالى ثم بعد ذلك قال سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [النمل: ٤١ - ٤٢].

ثم بعد أن رأت عرشها العظيم عندَ نبي الله سليمان: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل: ٤٤].

والصرح: هو القصر وكل بناء مرتفع، والممرد أي: المبنى بناء محكماً أملس، وقوله: ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ [النمل: ٤٤] أي: زجاج. وتمريد البناء تمليسه.

والغرض أن سليمان، عليه السلام، اتخذ قصراً عظيماً منيفاً من زجاج لهذه الملكة؛ ليريها عظمة سلطانه وتمكنه، فلما رأت ما آتاه الله، تعالى، وجلالة ما هو فيه، وتبصرت في أمره انقادت لأمر الله وعَرَفت أنه نبي كريم، وملك عظيم، فأسلمت لله، عز وجل، وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [النمل: ٤٤] أي: بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها الشمس من دون الله، ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤] أي: متابعة لدين سليمان في عبادته لله وحده، لا شريك لـه، الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا[٢].

٤ - قصة لقمان وابنه:

شهد الله بحكمة لقمان، القول الراجح أنه ليس نبياً[٣]، وقد ورد في حكمة لقمان آثار كثيرة، ذكرها المفسرون، ومنها ما هو صحيح ومنها ما هو ضعيف، ولكنني سأقف على ما

---

(١) انظر تفسير السعدي - (ج ١ / ص ٦٠٥).
(٢) تفسير ابن كثير - (ج ٦ / ص ١٩٧).
(٣) تفسير ابن كثير٣/ ٤٤٣، وتفسير القاسمي ٣/ ٤٧٩٦.

نلمسه من حكمة في هذه القصة التي ذكرها القرآن حين وصى لقمان ابنه:

أ - أول ما يشدنا في هذه القصة: حسن الأسلوب الذي يستخدمه لقمان أثناء دعوته لابنه، حتى إنه يخاطبه بأحب الألقاب إليه، وأقربها إلى نفسه(يا بني) وبهذا يتمكن من السيطرة على قلبه وعقله، وذلك أدعى لقبول النصح والوعظ وأن مبعثه الحب والشفقة والقربى.

ب - أن لقمان جمع في وعظه لابنه بين الأصول والفروع، والأقوال، والأفعال، والاعتقاد، والأمر، والنهي. فها هو ينهاه عن الشرك ثم يأمره بالصلاة، ويذكره بعدل الله، وشمول علمه وإحاطته، ثم نجده يأمره بأن يقوم بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وينهاه عن الكبر والخيلاء، والعجب، والغرور، حتى مشيته يبين له كيف تكون، وصوته له ضوابط وموازين.

ج - أن وصايا لقمان لابنه بلغت عشراً بين أمرٍ، ونهيٍ، وإخبار بمعنى الأمر أو النهي، كل هذا في كلمات قصيرة جميلة بعيدة عن التكلف، وهذا من الحكمة، ولهذا جاءت الحكمة والأمثال من كلمات قصيرة المبنى كبيرة المعنى، وهذا ما نلمسه في وصية لقمان لابنه.

د - الدروس التي يجب على كل داعية أن يخرج بها من قصة لقمان في دعوته أهمها:

- حسن الأسلوب، واختيار أفضل الكلمات للوصول إلى قلب المدعوين.
- التركيز على الأصول من التوحيد وغيره، مع عدم الإخلال بالفروع.
- الإيجاز في القول مع التركيز والشمول.
- لابد لكل داعية أن يعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس بالأمر الهين ولا اليسير وذلك يخشى على صاحبه من المزالق، ويستطيع الداعية أن يتخلص من ذلك بالصبر الذي ذكره الله في القرآن ٩٠ مرة وكذلك التواضع، ومن المهم التزام منهج الوسطية في الأمور كلها، وهذه وقفة سريعة مع هذه القصة العظيمة التي تفيض لنا حكمة وفقهاً وعلماً: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

* * * * *

المبحث الرابع
الحكمة في السنة

السنة كما نعلم هي المفسرة للقرآن ، وهي المصدر الثاني للتشريع ، ولذا سنذكر بعض الأحاديث الصحيحة التي وردت في الحكمة مع الاختصار في ذلك:

عن ابن عباس رضي الله عنهما - قال: " ضمني رسول اللهﷺ إلى صدره ، وقال: **«اللهم علمه الحكمة»** [١] .

قال البخاري:" الحكمة: الإصابة في غير النبوة" .

قال ابن حجر: "واختلف في المراد بالحكمة هنا: فقيل: الإصابة في القول .

وقيل: الفهم عن الله ، وقيل: ما يشهد العقل بصحته ، وقيل: نورٌ يفرق به بين الإلهام والوسواس ، ومنهم من فسر الحكمة هنا بالقرآن[٢] .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول اللهﷺ قال: **«فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرغ صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بتسط من ذهب ممتلئ رحمة وإيمان فأفرغه في صدري ثم أطبقه»** [٣] .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ : **«لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالاً فسُلّط على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلّمها»**[٤] .

والحكمة هنا فسرت بالقرآن .

قال ابن الصلاح:" إن المراد بالحكمة: العلم المشتمل على المعرفة بالله" ، ومعاني الحكمة في هذه الأحاديث قريبة من المعاني التي ذكرناها عند بيان الحكمة في كتاب الله تعالى[٥] .

---

(١) صحيح البخاري ٣٤٧٣ .
(٢) انظر فتح الباري٧/ ١٠٠ والحكمة في الدعوة إلى الله ص ٢٣ .
(٣) رواه البخاري ٣٤٩ ، مسلم ١٦٣ .
(٤) رواه البخاري٧١ ومسلم١٣٥٢ .
(٥) فتح الباري ٦/ ٥٣٢ ، والحكمة في الدعوة إلى الله ص ٢٤ .

أمثلة من الحكمة في السنة النبوية:

تجري الحكمة على لسان رسول الله ﷺ كالماء الزلال، وأعماله ﷺ كلها عين الحكمة، فهو المعصوم من الزلل والخطأ.

وسنكتفي بأمثلة لبيان الحكمة في السنة كما لو كانت قلادة تحيط بالعنق:

فنجد حكمة الرسول ﷺ في حسن تعامله مع أصحابه ومراعاته لأحوالهم، وهذا أكثر من أن يحصى وأشهر من أن يؤتى له بأمثلة.

إجابة الرسول ﷺ للسائلين، حيث قد يبدو الخلاف والتعارض - أحياناً - بينهما، بينما هذا الخلاف اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد وذلك لحكمة عظيمة وهي مراعاة حال السائلين؛ مثال على ذلك:

سأل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الرسول ﷺ قائلاً: يا رسول الله! أي العمل أفضل؟ قال: «**الصلاة على ميقاتها**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»، فسكت عن رسول الله ﷺ، ولو استزدته لزادني[١].

وعن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت:" يا رسول الله! نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد؟ قال: «**لا لكن أفضل الجهاد حج مبرور**»[٢].

وعن عبد الله بن بسر رضي الله عنه أن رجلاً قال:" يا رسول الله! إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ فأخبرني بشيء أتشبث به، قال: «**لا يزال لسانك رطباً بذكر الله**»[٣].

وغير ذلك من الأحاديث التي سأل أصحابها عن أفضل العمل، فاختلفت إجابة رسول الله ﷺ؛ مراعاة لحال السائلين وإدراكاً منه ﷺ أن ما يستطيعه هذا قد لا يستطيعه ذاك، إلى غير ذلك من الأسباب التي يراعي فيها حالة الفرد وحاجة الأمة وقواعد الشرع.

ولو أن الدعاة إلى الله استطاعوا أن يكلفوا الإنسان بما يحسنه عدا الواجبات وفروض العين وابتعد عما لا يستطيع لحققت الأمة اكتفاءً ذاتياً في جميع ميادينها، ولكن واقع أغلب

---

(١) البخاري٢٧٨٢.

(٢) رواه البخاري ٢٧٨٤.

(٣) أحمد٤/ ١٩٤، صحيح الترمذي للألباني.

الناس في هذا الزمان كما قال الشاعر:

ومكلف الأشياء ضد طباعها مستطلب في الماء جذوة نار

٣ . وانظر إلى هذا الأسلوب الرائع في المواقف التي تحتاج في معالجتها إلى الحكمة وكيف عالجها الرسول ﷺ :

فعن أبي أمامة رضى الله عنه قال: (إن فتى شاباً أتى النبي ﷺ وقال: (يا رسول الله ائذن لي بالزنى ، فأقبل القوم عليه فزجروه ، قالوا: مه مه ، فقال: «ادنه» ، فدنا منه قريباً ، قال: فجلس ، قال: «أتحبه لأمك؟» قال: لا والله!! - جعلني الله فداءك - قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم» ، قال: «أفتحبه لابنتك؟» قال: لا والله يا رسول الله - جعلني الله فداءك - قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم» ، قال: «أفتحبه لأختك؟» قال: لا والله! - جعلني الله فداءك - قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم» ، قال: «أفتحبه لعمتك؟» قال: لا والله!! - جعلني الله فداءك - قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم» ، «أفتحبه لخالتك؟» قال: لا والله ! - جعلني الله فداءك يا رسول الله - قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم» ، فوضع يده عليه وقال: «اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه» . فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[1] .

أرأيتم هذا الأسلوب العجيب في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، وكيف جاء هذا الشاب وقد هاجت شهوته ورغب في الحرام ، ولكن حكمة الرسول ﷺ ، وبحكمته في الإقناع عاد هذا الشاب محصناً بعيداً عن الشهوة وبعيداً عن الشبهة .

وأيضاً في قصة الرجل الذي بال في مسجد الرسول ﷺ ، وأراد الصحابة أن يضربوه فقال ﷺ : «لا تزرموه»[2] ثم بعد ذلك أخذ ﷺ يفهمه بالحكمة والموعظة الحسنة أن هذه المساجد لا تجوز لشيء من هذا ولكن هذه المساجد جعلت للصلاة وذكر الله وغير ذلك من العبادات .

ولعل من أهم الأمثلة في هذا المجال: قصة الحديبية وما وقع من أحداث فيها كانت تقتضي الحكمة في أسمى معانيها وكانت حدثت أمور لا تحمد عقباها ولكن سنتكلم من

---

(١) أحمد ٥/ ٢٥٦ وقد صححه الألباني .

(٢) تقطعوا عليه بوله .

باب الحصر لا التفصيل، وسنتحدث عن القضية التي عقد فيها الصلح ونقرأ كما في صحيح البخاري:

فجعل النبي ﷺ يقول: «**اكتب بسم الله الرحمن الرحيم**»، فقال سهيل بن عمرو: أما الرحمن فوالله ما ندري ما هو، ولكن اكتب باسمك اللهم، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا الرحمن الرحيم، فقال ﷺ: «**اكتب باسمك اللهم**»، ثم قال: «**هذا ما قضى عليه محمد رسول الله**»، فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله فقال النبي ﷺ: «**والله إني لرسول الله وإن كذبتموني اكتب محمد ابن عبد الله**»[1].

إن التأمل في هذه الحادثة العظيمة يظهر لنا مقدار حكمته ﷺ وعدم استجابته للاستفزاز أو وقوفه على أمر فيه سعة مع أنه يحقق للمسلمين مكاسب باهرة وهذا من باب النظر في المصلحتين والسعي في تحصيل أعلاهما، ولذلك جاءت النتيجة بتسمية الله لهذا الصلح فتحاً: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾[الفتح: ١].

إن الدعوة إلى الله يجب أن تستفيد من هذه الدروس، وقد يتوهم متوهم أن الحكمة تقتضي التنازل دائماً إذا كان الأمر في مصلحة الإسلام والمسلمين، كما هو واقع مع بعض العاملين في الدعوة والمتحمسين للدعوة ممن ينقصهم العلم الشرعي، وهذا خلل في المنهج، وخطأ في التصرف، وبخاصة أن هؤلاء يحتجون دائماً بقصة الحديبية عند كل تنازل يقدمونه، في الحقيقة هناك قضايا لا تقبل التنازل أبداً - وهذه هي الحكمة - وهذا كثير جدا في كتاب الله عز وجل، وسنة الرسول ﷺ، وفعل الخلفاء الراشدين، ومن ذلك سبب نزول سورة الكافرون، وكذلك قصة قريش مع الرسول عندما طلبوا أن يخصص لهم مجلسا دون الضعفاء من المسلمين؛ فنزل قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[الأنعام: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨].

---

(١) صحيح البخاري٣/ ١٠٠.

أما أبو بكر رضى الله عنه وقصته في حرب الردة وعدم تنازله عن شعيرة من شعائر الإسلام وقوله كلمته الخالدة:" والله لو منعوني عناقاً - أو عقالاً - كانوا يؤدونه للرسول ﷺ لقاتلتهم عليها .

وحيث يبين أنه سَيُسَوِّي بين من ترك الصلاة ومنع الزكاة ، ولن يقبل التفريق بينهما ، والقصة موجودة بالتفصيل في كتب الحديث والسيرة[١] .

وأما أعظم أمر رأينا الحكمة متمثلة فيه من خلال منهج القرآن وسنة الرسول ﷺ فهو معالجة قضية المنافقين ، وهو العلاج الذي استمر منذ هجرته ﷺ إلى المدينة وحتى غزوة تبوك ، بل إلى وفاته ﷺ ولقد شغل وقتاً كبيراً من وقت الرسول ﷺ في المدينة ، والآيات كثيرة في كتاب الله عز وجل تتحدث عن ذلك حتى نزلت سورة كاملة في هذا الموضوع ، وقد اتسم علاج هذه المشكلة بعدة سمات من أبرزها: [٢]

طول المدة ، وهي ما بين هجرة الرسول ﷺ إلى قبيل وفاته وهذا يدل على الصبر العظيم الذي تحلى به الرسول ﷺ وهو يعالج هذه المشكلة العويصة بتؤدة وروية .

الآيات الكثيرة التي نزلت تتكلم عن القضية حيث لا يقاربها قضية أخرى إلا قضية الشرك والمشركين ، وقضية أهل الكتاب ، والله سبحانه وتعالى قادر على حسمها في آية واحدة ، ولكن القرآن الكريم جاء ليرسم منهجاً للبشر فيه صفة الشمول والديمومة لأنه دين عالمي .

الحرص على وحدة الصف ، مع عدم السكوت عن الباطل وإقراره ، وهذه مسألة يغفل عنها كثير من الدعاة وقد تحقق الأمران فبقي الصف المسلم موحداً وتم القضاء على المنافقين بأساليب عدة .

أخذ الناس بظواهرهم ، وترك سرائرهم إلى الله عز وجل ، وهو منهج فريد تميز به الإسلام عن سائر النظم والأديان ، ومع أن المنافقين أشد كفراً من المشركين فلم يؤاخذوا بما بطن منهم - مع علم الرسول ﷺ بما هم عليه من النفاق والكفر - ولكن القضية قضية

---

(١) انظر فتح الباري كتاب الزكاة ٣/ ٣٦٢ .

(٢) بحث في الحكمة للشيخ ناصر بن سليمان العمر/ بتصرف .

منهج وليست قضية أفراد يتم القضاء عليهم ثم ينتهي الأمر .

المحافظة على هيبة المجتمع المسلم في عيون الأعداء والخصوم حتى لا يقول الناس أن محمداً ﷺ يقتل أصحابه[١] وبخاصة كثرة الأعداء واستغلالهم لكل فرصة تسنح لهم بالدخول في الصف .

تركيز القرآن الكريم على الصفات وعدم ذكر الأفراد ، حيث لم يرد في القرآن اسم منافق واحد ، وهذا المنهج حقق آثاراً إيجابية ضخمه ، وكان كفيلاً بالقضاء على هذه الحركة مع تجاوز السلبيات المتوقعة ، ولهذا قال ﷺ في نهاية المطاف رداً على عمر - الفاروق - الذي طالما طالب بقتل المنافقين حماية لدين الله(أين عمر؟) لو قتلنا هؤلاء يوم طلب عمر لأرعدت لهم أنوف تريد اليوم قتلهم .[٢] ، وهذا المنهج هو الذي أدى إلى قتلهم معنوياً ، دون الحاجة إلى قتل أي فرد منهم حسياً وهذه - والله - هي الحكمة في أسمى معانيها ، لا كما نرى في هذه الأيام لا يدري القاتل لِمَ قَتل ، ولا المقتول لمَ قُتل ، والله المستعان ، فأين الحكمة في الدعوة إلى الله ونشر دين الله . فلابد أن نرسم منهج شرعي لمواجهة حركات المنافقين في الأمة ، حتى نعمل على شل فاعليتها والقضاء عليها دون إحداث فتن داخل الصف المسلم ولن يتحقق هذا الأمر إلا بالالتزام بالحكمة التي رأينا بعض مظاهرها وسماتها في منهج القرآن والسنة عند معالجة هذه القضايا الكبرى .

* * * * *

(١) البخاري ٤/ ١٦٠ .

(٢) انظر تفسير الطبري ٢٨/ ٧٦ ، وسيرة ابن هشام٣/ ٣٢٧ .

المبحث الخامس
موانع الحكمة

١ - الهوى وعدم التجرد:

يقول سبحانه: ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص: ٢٦].

ويقول: ﴿ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [القصص: ٥٠].

وقال: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [المؤمنون: ٧١].

والآيات في ذم الهوى كثيرة جداً وكلها تدل على استحالة اجتماع الحكمة والهوى فتأمل قول الله: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [المائدة: ٤٩]، والحكم بما أنزل الله هو مقتضى الحكمة وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٤﴾ ﴾ [محمد: ١٤].

وفي حديث الرسول ﷺ: «... **حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوًى متبعاً ودنيا مؤثَرَة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، ورأيت أمراً لا يَدانِ لك به؛ فعليك خُوَيصةَ نفسك...**»[(١)].

وهذا دليل على فقدان الحكمة وذهابها، والحكمة منبعها العقل بل إن معناهما واشتقاقهما متقارب - فكلاهما يدل على المنع مما لا ينبغي - ومن هنا جاء قول الشاعر حيث قال مبيناً تأثير الهوى على الحكمة فقال:

وآفة العقل الهوى فمن علا ... على هواه عقله فقد نجا

والهوى يعمي، ويصم كما قال شيخ الإسلام، فمن كانت هذه حاله فأنى له الحكمة؟!

٢ - الجهل - الأخذ بظواهر النصوص:

والجهل ضد العلم، وما وجد الجهل في شيء إلا شانه وما نزع من شيء إلا زانه، والتأمل في هذه الآيات يبين تأثير الجهل وأنه والحكمة لا يجتمعان، حيث بيَّن الله عز وجل أن السبب في غياب الحكمة هو الجهل: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الزمر: ٦٤].

---

(١) ابن ماجة ٤٠٠٤.

وقال: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [البقرة: ٦٧] .

وقال: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة: ٥٠] .

وقال: ﴿ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦] .

ومن خلال هذه الآيات يتضح لنا تأثير الجهل على الحكمة وأنه من خوارمها ولذا قال الشاعر:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله ::: وأجسادهم دون القبور قبور

فهل ننتظر الحكمة من الأموات؟!! (بالطبع لا!) .

٣ - الأخذ بظواهر النصوص، وعدم الجمع بين الأدلة:

وذلك كمنهج الظاهرية بالأخذ بظواهر النصوص؛ ولذا لم يوفقوا للإصابة في الكثير من المسائل .

أما عدم الجمع بين الأدلة فهو مزلق آخر من المزالق التي يقع فيها بعض طلاب العلم فيعتمدون على دليل دون الآخر، وهذا في النهاية يؤدي إلى اتخاذ مواقف بعيدة عن الحكمة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ففطنوا لشيء وغابت عنهم أشياء .

ومن ذلك الاستدلال بقوله تعالى: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النجم: ٣٨ - ٣٩] .

ويغفلون عن الأحاديث التي تبين أن الإنسان قد يكون آثماً إذا رأى منكراً عمله غيره فلم يغيره، إما بيده أو بلسانه أو بقلبه، حسب استطاعته وكذلك يغفلون عن الأحاديث التي تبين مشاركة المسلم لغيره في الأجر، كما ورد في الكثير من الأحاديث منها:

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : **«إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو لـه»** (١)

ومثل ذلك الاستدلال بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] .

---

(١) صحيح مسلم كتاب الوصية ٣٠٨٤ .

على وجوب الإنصات مطلقاً ويغفل الأحاديث الواجبة لقراءة الفاتحة في الصلاة مع الإمام والمسألة خلافية[١] .

٤ - الاستدلال بالأدلة في غير مواضعها :

وهذا يختلف عن السابق ، لأنه استخدام للدليل في غير موضعه والأمثلة توضح ذلك:

فكم سمعنا من الناس من إذا طلب منه الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر قال: ما لي وللناس ولم أكلف بهم والله يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠٥] .

وقد روى الإمام أحمد أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال:" أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠٥] ، وإنكم تضعونها في غير موضعها وإنا سمعنا رسول الله ﷺ يقول: **«إن الناس إذا رأوا المنكر ولم ينكروه أوشك أن يعمهم الله بعقابه»**[٢] . [٣] .

ومن الاستدلال بالأدلة في غير مواضعها ، استدلال الناس بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥] .

وبخاصة عند تبرير عدم المشاركة في الجهاد في سبيل الله ، ولم يعلموا أن هذا الدليل حجة عليهم لا لهم ؛ ولننظر في هذا الحديث:

روى ليث بن سعد ، عن يزيد بن أبي حبيب ، عن أسلم بن أبي عمران قال:" حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه ومعنا أبو أيوب الأنصاري فقال ناس : ألقى بيده إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب: "نحن أعلم بهذه الآية إنما نزلت فينا ، صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه فلما فشا الإسلام وظهر ، اجتمعنا معشر الأنصار تحبياً ، فقلنا: قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونصره حتى فشا الإسلام وكثر

---

(١) ومحل ذلك كتب الفقه ، وإنما المراد التمثيل على استخدام دليل دون الآخر .

(٢) مسند أحمد العشرة المبشرون بالجنة .

(٣) قال ابن كثير: فقد روى هذا الحديث أصحاب السنن الأربعة ، وابن حبّان في صحيحه ، وغيرهم من طرق كثيرة ، عن جماعة كثيرة ، عن إسماعيل بن أبي خالد متصلاً مرفوعاً به ، ومنهم من رواه عنه موقوفاً عن الصديق ، وقد رجح رفعه الدارقطني وغيره .

أهله ، وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد ، وقد وضعت الحرب أوزارها فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهم فنزل قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥] .

فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال ، وترك الجهاد[١] .

والأمثلة في هذا كثيرة جداً والاستدلال بها على هذا يخالف الحكمة وينافيها .

٥ - عدم فهم الدليل:

وذلك بأن يكون الدليل صحيحاً ، والاستشهاد به في موضعه ، ولكنه لا يفهم الدليل على وجهه الصحيح - وذلك فرع عن الجهل - وهذا يخالف الحكمة في تصرفه ، وأسلوب تطبيقه . ومثال ذلك: أن الرسول ﷺ قال: «**مروا أبناءكم بالصلاة لسبع سنين واضربوهم عليها لعشر سنين...**» [٢] .

فيأتي فيضرب ابنه ضربا مبرحا وغليظاً وهذا غير مراد من الحديث ، وهو مخالف للحكمة ؛ لأن المراد هو عدم الضرب المبرح الموجع ، لأن الطفل لم يُكَلّف بعد ، فمن كان في سن العاشرة أو الحادية عشرة ؛ فلم يبلغ سن التكليف فكيف نعاقبه عقاباً شديداً والمراد هو التربية والتعويد لا العقاب والتعزير . والحكمة قد تقتضي في مثل هذه الحالة أن نعاقبه بطرق قد تؤلمه أكثر من الضرب ؛ كأن نحرمه من مصروفه ، أو من الذهاب إلى صديقه ليلعب معه ، وهذا تأديب بطريق شرعي بغير أن نلطم خداً أو نكسر عظماً .

- وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ [النساء: ٣٤] .

فيأتي الزوج ولا يفهم معنى الآية ؛ فيقول أن الواو لا تقتضي ترتيباً ولا تعقيباً فيبدأ بالضرب قبل الوعظ والهجر ويضرب زوجته ضرباً شديداً مؤلماً ، وكل هذا خلاف الحكمة وناشئ من قصور الفهم .

---

(١) قال ابن كثير ١/ ٢٢٨ رواه أبو داود والترمذي والنسائي وعبد بن حميد في تفسيره ، وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه كلهم من حديث يزيد بن حبيب وقال الترمذي: حديث حسن غريب وقال الحاكم: على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

(٢) أبو داود ٤١١٣ ، أحمد ٢/ ١٨٧ ، وقال الأرناؤوط في شرح السنة ٩/ ٢٢ : إسناده حسن .

(وحتى إذا ضرب كما قال الفقهاء: كأن يضع سواكاً تحت إبطه، ويضرب ضرباً غير مُبَرِّح؛ أي لا يرفع يده إلى آخرها ويضرب ضرباً قد يكسر عظماً أو يخمش وجهاً أو يلطم وجهاً، فيكون ضرباً المقصود منه التأديب وليس الضرب للإهانة).

٦ - قلة التجربة:

لذا نجد أن بعض تصرفات الشباب تخالف الحكمة لقلة التجربة وضعفها وأن هذه التجربة محدودة، فمثلاً نجد بعض الشباب الملتزم حديثا يتمسك بالسواك ويلتزم بالسنة، ولكن يشدد على الناس وهو لا يفهم أي شيء في الدين، ولكنه قد قرأ حديثاً، أو سمع آية، أو درساً ويظن أنه وصل لدرجة عليا في العلم، فهم بعض هؤلاء الناس ينفرون الناس من الإسلام لقلة تجربتهم.

٧ - الفردية:

وهي أيضا من خوارم الحكمة الظاهرة لذا قال ﷺ: «... **فإنّ الذئب يأكل القاصية**»[1].

وقال الشاعر في هذا المعنى:

رأي الجماعة لا تشقى البلاد به ... رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها

فهنا كما بين أنه من السهل على الذئب أن يقتنص الشاة البعيدة عن القطيع؛ كذلك من السهل على الشيطان أن يهجم على الرجل الذي يبتعد عن جماعة المسلمين، فيأخذ به يميناً وشمالاً ويطرحه أرضاً، ولا يجد ما يستطيع أن يقوي به نفسه وذلك لبعده عن الجماعة، فكذلك هو يكون بعيد كل البعد عن الحكمة.

٨ - ثلاث موانع متقاربة للحكمة:

أ - عدم تحديد الأهداف.

ب - النظرة السطحية.

جـ - آنية التفكير وموسمية العمل والارتجال.

إن هذه العوائق الثلاثة متقاربة في معناها وحقيقتها، وإن كان كل واحد منها يحمل معنًى خاصاً وإن كنا نستطيع أن نقول: إن بينهم عموماً وخصوصاً.

---

(١) أبو داود ص ٥٤٧ والنسائي ٢/ ١٠٦ وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٥٧٠١.

فعدم تحديد الأهداف بدقة يؤدي إلى آنية التفكير وموسمية العمل ، وهذا هو الارتجال بعينه وهذا الأمر لا ينشأ عادة إلا من سطحية الأمور ، والوقوف عند ظواهر الأحداث ، دون النظر في أسبابها ، ومآلاتها وآثارها والنتيجة الطبيعية لاتخاذ القرار ، والموقف من الحدث وهو عدم تطابق ما يتخذ من قرار مع ما يستوجبه الحدث ، وبالتالي يجانب الحكمة ؛ لأن الحكمة هي وضع الشيء في موضعه .

وهناك أمثلة لذلك مثلاً:

- طبيب جاءه مريض وقد بدت بعض البثور على وجهه فقام الطبيب بوصف بعض المراهم التي تزيل البثور دون البحث في أسباب هذا المرض ، فتكون النتيجة هي عودة البثور بين فترة وأخرى لعدم القضاء على أسبابها .
- مثال آخر: مَن في أسنانه تسوس ويشكو من آلامها ، فكلما جاء إلى الطبيب أعطاه ما يسكن له الألم ، ويستمر الألم يعاوده ، والطبيب مستمر في وصف المسكنات ، دون اتخاذ العلاج الحاسم بإزالة التسوس ، حتى لو أدى ذلك إلى فقدان السن ذاته ، أو انتقال التسوس إلى ما حوله من أسنان أو إلى العصب ، إذا ما أهملت الأسباب ، وتم تجاهل حقيقة المرض .

٩ - تقديم الجزئيات على الكليات:

وهذا ناشئ من قصور العلم ، وقِصَر النظر ، وهذا الأمر ابتلينا به كثيراً في عصرنا الحاضر ، وفي بعض دول العالم الإسلامي .

وأدرك أعداء الإسلام هذه الثغرة ، فأقاموا بعض شعائر الإسلام الجزئية ، وهدموا الأصول والأركان ، يعاقبون المفطر في رمضان ولكنهم لا يزيلون مظاهر الشرك ، ولا يأمرون بالصلاة فضلاً على أن يعاقبوا تاركها ، ويقرأون القرآن في الإذاعة وينقلون خطبة الجمعة في التليفزيون ، ولكنهم يتحاكمون إلى شريعة الطاغوت .

ورأينا عدداً من الناس يغضبون إذا رأوا شارب الدخان - وهو منكر ولا شك - ولكنهم لا يحركون ساكناً عندما يرون الربا ، وقد ضرب في الأرض أطنابه ، وينفعلون إذا خرجت امرأة سافرة عن وجهها - وهذا حرام في الكتاب والسنة - ولكنهم يتجاهلون

دخول اليهود والنصارى والوثنيين إلى بلاد المسلمين ، وإقامتهم بين ظهرانيهم .

ونضرب مثالاً كما بين الله سبحانه وتعالى أنه بضرب الأمثلة تتضح الصورة:

مريض أصيب بالزائدة ، فذهب إلى المستشفى مسرعاً ، فأصابته شوكة في إصبعه ، فلما وصل انشغل الطبيب بالشوكة عن الزائدة التي قد تنفجر بين لحظة وأخرى فتودي بصاحبها فأين الحكمة في هذا التصرف يا مشايخ وعلماء المسلمين؟؟!!!

١٠ - العجلة وعدم ضبط النفس:

العَجَلة من الشيطان ، وإذا ابتلي الإنسان بهذه الخصلة الذميمة التي هي من أمراض القلوب ، ستقوده إلى المهالك ، ومن آثار العجلة ومظاهرها عدم ضبط النفس في المواقف التي تحتاج إلى تأنٍ ، وتؤدة وروية .

وأكثر أسباب الندم ناتجة عن العجلة والانفعال غير المنضبط ، وهنا تكون النتيجة غير محمودة ، قال الشاعر:

من غرس الحنظل لا يرتجي أن يجتني السكر من غرسته

فهذا أمر مهم للناس وللدعاة عامة ، وإلى الدعاة إلى الله خاصة ؛ لأنهم بحاجة إلى روية وتؤده وتأنٍ وضبط نفس في المواقف التي تحتاج ذلك .

١١ - الخلط في المفاهيم:

الحكيم لابد أن ينطلق من مفاهيم صحيحة ، وقواعد ثابتة ، مستمدة من الكتاب والسنة ، وإذا اختلطت المفاهيم لدى المرء وتشابهت الأمور لن يصل إلى مبتغاه ، وسيتخبط في سيره ، ومن الملحوظ في عصرنا الحاضر اختلاط الكثير من المفاهيم على كثير من طلاب العلم والدعاة ، وهناك أمثلة على ذلك:

أ - الخلط في مفهوم خوف الفتنة ، حتى أصبح سيفاً مسلطاً على رءوس الداعين إلى الله ، الآمرين بالمعروف ، والناهين عن المنكر ، فكلما أمر آمر بمعروف أو نهى ناهٍ عن منكر قيل له أنك تثير الفتنه ، ولم يعلم أولئك أنهم في الفتنة قد سقطوا ، وكان من نتيجة هذا الأمر أن استمرت الأمة تقدم التنازلات واحداً تلو الآخر ، وبعض الدعاة إلى الله ساكتون ، أو مُسَكَّتون ؛ خوفاً من الفتنة حتى ضرب الكفر أوتاده في بلاد المسلمين ، وحتى شاعت

البدع والخرافات في الدين الإسلامي، وحتى أصبح المسلمون جهلة - كحاطب ليل - لا يعلمون الغث من السمين وهذه هي الفتنة في الحقيقة.

قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٩٣].

ب - ومن الخلط في المفاهيم الخلط بين الحزبية والانتماء حتى سوى الكثير بينهما، مع الفارق الكبير.

فالحزبية في الإسلام مذمومة، وهو تحزب المسلمون بعضهم ضد بعض بل يجب على المسلمين أن يكونوا حزباً واحداً ضد الكفر وأهله.

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

بل يجب علينا أن نكون حزباً واحداً نتمسك بكتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ.

* * * * *

المبحث السادس
عدم إتقان قاعدة المصالح والمفاسد

وهذا يؤدي إلى تقديم جلب المصلحة على دفع المفسدة، ودفع المفسدة الصغرى بالكبرى، وجلب المصلحة الدنيا وترك العليا، فليس الحكيم هو من يعرف الخير والشر؛ وإنما الحكيم الذي يعلم خير الخيرين وشر الشرين وهذه القاعدة من أعظم قواعد الشريعة - وسبحان الله - الجهل بها يجر على المسلمين الشرور والويلات.

فلابد للداعي أن يفرق بين هذين الشيئين وأن يعلم هذه القاعدة تماماً: أن درء المفاسد أوجب من جلب المصالح وهذه من الأمور المهمة في تجميع الأمة وجعلها جسداً واحداً، وقد يحدث بسبب الجهل بهذه القاعدة افتراق الأمة إلى طوائف كثيرة وهذا مما يضعف في بنيان الأمة، وفي عين أعدائها.

١٢ - الغلظة والعنف:

من موانع الحكمة الغلظة والعنف والطيش، وما وجدت الغلظة في شيء إلا شانته، وما نزعت من شيء إلا زانته، ويكفي أن نتأمل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وسرعة الغضب والانفعال من خوارم وقوادح الحكمة، فالأصل في المؤمن عامة، والداعي إلى الله خاصة، أن يؤلف القلوب وأن يعمل على اجتماع المجتمع المسلم تحت راية واحدة، وألا يفرق الناس خصوصاً لمن يعمل إماماً لمسجد وخصوصاً في البلاد غير المسلمة؛ حيث نرى الحزبيات في المساجد وكل هذا من خوارم الحكمة في الدعوة إلى الله ونشر دين الله، فالإمام في وظيفته، ومن يعملون معه في العمل الدعوي عليهم أن يكونوا يداً واحدة وأن يجعلوا المجتمع المسلم والأقلية مجتمعاً واحداً وألا يجعلوا هناك تفرقة ولا تحزباً وأن يكونوا رحماء بالناس.

فهذه أهم خوارم الحكمة وموانعها، وحري بالدعاة إلى الله أن يتأملوها ليجتنبوها، وخصوصاً طلاب العلم عليهم أن يحذروا أمتهم منها، ليكونوا مسَدِّدين في أقوالهم وكذلك أفعالهم ونيّاتهم.

* * * * *

المبحث السابع
أركان الحكمة وأسبابها

لقد ذكرنا في الفصل السابق خوارم الحكمة أو موانعها ولكن لا بد أن نتكلم في هذا الفصل عن أسباب الحكمة، حتى يكون الأمر واضحاً جلياً عامةً، وقد أخذنا هذا الكلام من قول العلماء: "التخلية قبل التحلية"؛ فلابد أن أتخلى عن موانع الحكمة ثم بعد ذلك أتحلى بأركان الحكمة وأسبابها، وقد جمعت بين الأركان والأسباب؛ لأن بينهما عموماً وخصوصاً، فكل ركن سبب لا العكس.

١ - التجرد والإخلاص والتقوى:

هذا هو الأساس لكل عمل، والمنطلق لكل هدف وغاية، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ويقول جل وعلا: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

وقوله عز من قال: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة: ٥].

والرسول ﷺ يقول: «**إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم**»[(١)].

إننا لا نتصور حكمة بدون تجرد وإخلاص، ولذلك ذكرنا أن من موانع الحكمة الهوى، فإذا كان الهوى من موانع الحكمة، فإن التجرد والإخلاص من أسبابها.

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣].

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤].

ومن هذا المعنى نفهم قوله تعالى: ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤].

فإنه لن يكون إماماً إلا إذا كان حكيماً، وإذا كان إماماً للمتقين، فالتقوى صفة للإمام قبل المأمومين.

---

(١) مسلم ٢٥٦٤.

٢ - التوفيق والإلهام:

فالحكمة مطلب عزيز، وغاية سامية، ورتبة رفيعة، ينال صاحبها سمة من سمات الأنبياء والرسل، عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام، ولذلك فليست متاحة لكل فرد بل هي مع بذل الأسباب وتوافر الأركان فضل من الله تعالى ولذلك قال تعالى: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وبَيَّن الله سبحانه وتعالى أنه أعطى للقمان الحكمة، بل إن هناك سورة في القرآن اسمها لقمان؛ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ [لقمان: ١٢].

والرسول ﷺ سأل ربه أن يُلهم ابن عباس رضي الله عنه الحكمة، ويعلمه إياها، فقال ﷺ: «**اللهم علّمه الحكمة**» وقد سبق تخريج هذا الحديث.

وعندما نفقه هذه الحقيقة فإنه يتعين علينا أن نتعامل معها بما يجب أن نعمله من أسباب، لماذا؟؛ لكي يمن الله علينا بها: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

٣ - العلم الشرعي:

والعلم من أهم قواعد الحكمة ودعائمها، فكما أن الجهل مانع من موانعها فإن العلم سبب من أسبابها وركن من أركانها؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا ﴾ [فاطر: ٢٨].

وخشية الله من الحكمة، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩].

طبعا لا يستوون في أشياء كثيرة، ومن هذه الأشياء المهمة إدراك الحكمة وقد قَرَنَ الله بين الحكم - وهي الحكمة - والعلم في عدة آيات في كتاب الله، قال تعالى عن لوط عليه السلام: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء: ٧٤].

ويقول عن يوسف عليه السلام: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يوسف: ٢٢].

ويقول عن داود وسليمان عليهما السلام: ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وقال عز وجل عن موسى عليه السلام: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [القصص: ١٤] .

ومن هذه الآيات نفهم أن من أقوى الأدلة على اقتران الحكمة بالعلم قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣] .

ومن علم الأمر المختَلَف فيه أو ما يكون فيه إشكال على العامة هو الحكمة ، وأولو الأمر هنا هم العلماء وكذلك نفهم ارتباط الحكمة بالعلم وكذلك الحكمة بالعلم من قول الرسول ﷺ : «**من يرد به الله خيراً يفقهه في الدين..**» [١] .

والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩] .

ومن خلال هذه الأدلة يتضح لنا الأمر ، بل إن بعض العلماء فسروا الحكمة بالعلم ، وممن أطال في ذلك وفصّل في هذا الأمر رشيد رضا [٢] ، وكذلك الرازي [٣] ، وهذه حقيقة ولا بد أن نلزمها حتى نؤتى الحكمة .

٤ - التجربة والخبرة:

التجربة والخبرة هما من أهم أسباب التوفيق لتحصيل الحكمة ، وقد ورد عند البخاري في الأدب المفرد قال:"لا حكيم إلا ذو تجربة".

والمثل المعروف يقول:"اسأل مجرب ولا تسأل طبيب".

فالتجربة في الحياة رصيد ضخم وتعادل أعلى الشهادات ، فإذا أضفنا التجربة إلى العلم أصبحت أهم من الشهادة ، وهل الشهادة إلا علم وتجربة ، مع أنها في الغالب - أي الشهادة - تكون تجربة قاصرة ، ولكن التجربة مع الشهادة تكونان رصيداً كبيراً جداً .

ولقد وقفنا طويلاً عند آية في القرآن ، قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾ [الأحقاف: ١٥] .

وهنا نلاحظ أن ارتباط بلوغ الأشُد والاستواء في سن الأربعين له عدة دلالات ، ومنها

---

(١) صحيح البخاري كتاب العلم ٦٩ .

(٢) انظر تفسير المنار ٣/ ٧٥ .

(٣) تفسير الرازي ٧/ ٦٧ .

أن المرء يكون قد حصل على رصيد مناسب من التجربة، بل إننا نلمس من حياة الناس أن ما قبل الأربعين رصيد التجربة فيه أقوى من رصيد العطاء، وما بعد الأربعين نجد العطاء فيه أقوى من التجربة ألا وهي الخبرة، حيث أن الأربعين مرحلة وسطية في عمر الإنسان، حيث أن ما قبلها من العمل يعادل ما بعدها في الأعم الأغلب، ومما يجري في سياق الآية أن الرسول ﷺ بعث على الأربعين سنة، والله سبحانه يقول في موسى عليه السلام: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[القصص: ١٤].

قال الحسن: "(بلغ) أربعين سنة [١].

وخلاصة الكلام أن التجربة عامل مهم في حصول الحكمة وتحقيقها.

٥ - الاستشارة:

الفردية كانت من خوارم الحكمة، ومن وسائل تجنب الفردية أن نستشير والشورى لها مكانتها في الإسلام، وللدلالة على عِظَم وأهمية الشورى:

أن الله سبحانه وتعالى أمر النبي ﷺ - وهو النبي المعصوم - الذي يوحى إليه أن يستشير الصحابة فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾[آل عمران: ١٥٩].

بل إن هذه الآية جاءت في سياق يفيد أن هذا هو مقتضى الحكمة، ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[آل عمران: ١٥٩].

وقال سبحانه وتعالى واصفاً المؤمنين، مثنياً عليهم في هذا الأمر فقال: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[الشورى: ٣٨].

بل إننا وجدنا آية أخرى نصاً في هذه المسألة، وهي قضية فطام الولد فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾[البقرة: ٢٣٣].

وسبحان الله فصل الولد وفطامه يحتاج أيضاً إلى حكمة حتى لا يضار وهو صغير، وقد يكون ضحية خلاف بين الوالدين، فالله سبحانه وتعالى في هذه الآية قد جعل التشاور شرطاً

---

(١) انظر تفسير ابن كثير٢/ ٤٧٣ مع اختلاف المفسرين في ذلك.

في هذا الأمر، وليس مجرد التشاور بل لابد أن يكون تشاوراً حقيقياً يكون نتيجته التراضي والاتفاق، وإلا فلا، ولذلك ابن كثير قال: " فإن اتفق والدا الطفل على فطامه قبل الحولين، ورأيا في ذلك مصلحة له وتشاورا في ذلك وأجمعا عليه، فلا جناح عليهما، فيؤخذ منه أن انفراد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكفي، ولا يجوز لواحد منهما أن يستبد برأيه في ذلك بدون مشاورة الآخر"[١].

ومن خلال ما سبق تتضح أهمية الشورى في جميع مجالات الحياة وأثرها في مواجهة الأحداث، ولو استغنى أحد عنها، لاستغنى رسول الله ﷺ عنها؛ فقد كان يستشير صحابته في الملمات، بل إنه كان يأخذ برأيهم ولو خالف رأيه ﷺ كما حدث يوم أُحُد.

وكما قال الشاعر:

رأي الجماعة لا تشقى البلاد به ... رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها

وأيضاً يقول الشاعر:

ومن الرجال إذا استوت أخلاقهم ... من يُستشار إذا استُشير فيُطرَق

حتى يحل بكل واد قلبه ... فيرى ويعرف ما يقول فينطق

وقال آخر:

إذا كنت في حاجة مرسلاً ... فأرسل حكيما ولا توصه

وإن باب أمر عليك التوى ... فشاور لبيباً ولا تعصه

وقالوا أن الناس ثلاثة: رجل كامل - أي الكمال النسبي - وهو الذي له عقل ويستشير، والثاني نصف الرجل؛ وهو الذي له عقل ولا يستشير - وأرى أنه لو كان له عقل لاستشار - والثالث لا شيء؛ وهو الذي لا عقل له ولا يستشير[٢].

بُعد النظر وسمو الأهداف:

إن الذي يعيش لقضية مصيرية يختلف عن الذي يعيش على هامش الحياة، فعند وقوع حدث من الأحداث أو مواجهة قضية من القضايا، سنجد الفرق بين التفكيرين؛ لأن الأول سيربط القضية بالأهداف التي يسعى إليها ومن خلال هذا المنظور سيعالجها، وهذا الذي

(١) قاله الثوري وغيره، تفسير ابن كثير ١/ ٢٨٤.

(٢) انظر حتى لا تغرق السفينة ص ٦٨.

يرمي إليه الشاعر بقوله:

ومن الرجال إذا استعوت أخلاقهم ::: من يُستشار إذا استُشير فيُطرَق
حتى يحل بكل واد قلبه ::: فيرى ويعرف ما يقول فينطق

والشاهد هنا، حتى يحل بكل واد قلبه، فهو عن كيفية إعطاء الرأي واتخاذه في الموقف بناءً على الظروف المحيطة به، بعيد النظر في الأسباب والآثار فهو بادِ الرأي، ولذا فإن علو الهمة وبُعد النظر سببان من أسباب التوفيق والسداد في الرأي، وصدق الشاعر إذ قال:

وإذا كانت النفوس كبارا ::: تعبت في مرادها الأجسام

٦ - فقه السنن:

فقه السنن عامل مهم في نضوج الرأي وسلامة التفكير، لأن التفكر في السنن الكونية والشرعية مما حث القرآن على العناية به في آيات عديدة؛ قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ [الروم: ٩].

قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ [يوسف: ١٠٩].

قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [الحج: ٤٦].

الله سبحانه وتعالى قرن السير في الأرض - وهو إما حسي أو معنوي بالعقل - وهو أيضا موطن الحكمة، بل إن الآيات جاءت أيضاً بالأمر، ولم تقتصر فقط على الاستفهام فقال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ١١].

فقراءة التاريخ والاطلاع على أحوال الأمم الماضية وقراءة القرآن والاطلاع على أحوال الأمم الماضية يضيف إلى رصيد التجربة رصيداً علميًا من تجارب الآخرين، ولذلك قال الشاعر:

اقرأ التاريخ إذ فيه العبر ::: ضل قوم ليس يدرون الخبر

وكلما تعمق الإنسان في رؤية الماضي من خلال السنن الكونية - سنة الله التي ليس لها تحويلاً وسنة الله التي ليس لها تبديلاً - وكذلك السنن الشرعية والكونية كان أكثر قدرة على وضوح الرؤية في المستقبل ضمن الضوابط الشرعية والضوابط العقلية.

٧ - رجاحة العقل:

إن العقل مكان الحكمة وبيتها، وبين العقل والحكمة اشتراك لفظي ومعنوي، وقد يطلق العاقل على الحكيم، والحكيم على العاقل، فإذا اجتمعا افترقا، وإن افترقا اجتمعا، حيث أن الحكمة أعم من العقل وأشمل، ومما يدل على ارتباط العقل والحكمة أن الله تعالى لما ذكر الحكمة فقال: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

ختمها بقوله عز وجل: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، أي أولو العقول، قال ابن عاشور: وقوله: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ تذييل للتنبيه على أن من شاء الله إيتاءه الحكمة هو ذو اللب - العقل - الذي يفكر بحكمة، وأن تذكر الحكمة واستصحاب إرشادها بمقدار استصحاب اللب وقوته، واللب في الأصل يعني: خلاصة الشيء وقلبه، وأطلق هنا على عقل الإنسان؛ لأنه أنفع شيء فيه[1].

ولأثر العقل في تصرفات المرء وسلوكه، ذكره الله في القرآن كثيراً تنويهاً بمكانته وأثره في الحياة.

٨ - العدل:

أمر الله سبحانه بالعدل في كتابه في عدة مواضع ولا يمكن أن تجتمع الحكمة مع الظلم أبداً، والحيف والجور يقول تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ﴾ [النحل: ٩٠].

ويقول سبحانه: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٢].

ويقول عز وجل: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

ويقول سبحانه: ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ [الشورى: ١٥].

وعند التأمل في مكانة العدل من الحكمة يقول تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [النحل: ٧٦].

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٣/ ٦٤.

والحكم والحكمة اشتقاقهما واحد، والمعنى متقارب، وعند النظر في دلالات الحكمة نجد أنها في مآلاتها بمعنى الحكم، لأن الحكم هو الحكم بين الخصوم، والحكمة هي النظر في أمرين، أو عدة أمور، واختيار الصائب أو الأصوب منها، والله تعالى قد جعل العدل أساس الحكم؛ قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾ [النساء: ٥٨].

فكما أن العدل من لوازم الحكم فهو من لوازم الحكمة أيضاً، بل ركن من أركانها، وأساس من أسسها، والعدل والحكمة معناهما: " وضع الشيء في موضعه"، وإن كانت الحكمة أعم من العدل كما سبق البيان.

٩ - التثبت:

من الوسائل التي تؤدي للحكمة أيضاً التثبت، وهو منهج شرعي دعا إليه القرآن حيث قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ﴾ [الحجرات: ٦].

وبما أن العجلة والاستخفاف من خوارم الحكمة، فإن التأني والتثبت من دواعي الحكمة، والعجلة من الشيطان، وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠].

وهذه الآية أعم من التثبت بل هي أمر بالصبر، والتثبت يحتاج للصبر.

وفي آية سورة الحجرات بعد أن أمر الله سبحانه وتعالى بالتثبت، قال في الآية التي بعدها: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ [الحجرات: ٧].

أي لو أن الرسول استجاب لما يريدون دون تثبت ولا روية، لأصابهم العنت والمشقة - سواء كانت حسية أو معنوية - وهذا مما يخالف الحكمة ومقاصدها، والذي يمعن النظر في كثير من الأحداث المعاصرة، يدرك أن من أبرز آثارها السلبية العجلة وعدم التثبت، وقد أدرك أعداء الإسلام هذه الثغرة، فأكثروا من الإشاعات والأراجيف، وتلقاها الكثير من المسلمين بدون روية ولا تثبت ولا تبين، ولم يلتزموا المنهج الرباني في ذلك حيث قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣].

ولهذا فقدنا الحكمة في كثير من الأحداث التي مرت بالمسلمين فجاءت النتائج كما نرى .

١٠ - المجاهدة:

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] .

أي: لنوفقنّهم لإصابة الطرق المستقيمة كما فسرها الإمام الطبري[١] والحكمة هي التوفيق لإصابة الحق .

وبهذا فإن من أعظم الأسباب للتوفيق للحكمة هي المجاهدة وهي المفاعلة من الجهاد فهو جهاد بعد جهاد ، وحمل للنفس على تحقيق مراد الله مرة بعد أخرى ، وهذه الآية وعد من الله بأن من جاهد نفسه باحثاً عن الحكمة ، فإن الله سبحانه وتعالى سيوفقه إليها ، ولو بعد حين ، وهذا وعد الله ومن أصدق من الله قيلا؟ (لا أحد) .

١١ - الدعاء والاستخارة:

قال الله سبحانه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٦] .

قال ابن عاشور : "الرشد معناه: إصابة الحق وفعله"[٢] .

وقد تقدم أن من معاني الحكمة الإصابة في القول والعمل ، والدعاء له منزلة عظيمة ، وآثاره مُشاهَدة ملموسة ، وتكرر في القرآن ، قال سبحانه وتعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل: ٦٢] .

وقال : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾ [غافر: ٦٠] .

وقال: ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ ﴾ [الأعراف: ٥٥] .

والاستخارة أيها الأحبة قرينة الدعاء ، نوع من أنواعها ، عندما يعرض للمرء طريقان فأكثر ، ولا يدري أيهما يسلك ، فإنه بالاستخارة الإنسان يوَفَّق للصواب والحكمة .

---

(١) انظر تفسير الطبري ٢١/ ١٥ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ٢/ ١٨٠ .

١٢ - الصبر:

قيل: إن الصبر مفتاح الفرج، ولقد وردت آيتان في كتاب الله، وقفت عندهما متأملاً وخرجت بعد ذلك مستنتجاً أن الصبر دعامة من دعائم الحكمة، بل سبب من أسبابها، ولذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة: ٢٤].

فقال: إن الصبر من أعظم أسباب التوفيق للإمامة ولا يمكن أن يكون إماماً للمتقين إلا إذا كان حكيماً، قال الإمام الطبري:" وأريد بذلك في هذا الموضع أنه جعل منهم قادة في الخير، يؤتم بهم، ويُهتدى بهديهم[1].

ولأهمية الصبر وأثره في الحياة، وردت آيات كثيرة تحث عليه وتأمر به وبلغ عددهم ٩٠ مرة في القرآن الكريم، ومن الآيات التي وردت تبين أثر الصبر في الحصول على الحكمة والتوفيق إليها، منها قول الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت: ٣٤ - ٣٥].

فالإنسان المسلم المؤمن إذا سلك منهجاً يجعل من عدوه صديقا حميماً، فإن ذلك دليل على الحكمة وحسن التصرف، والقرآن يبين أنه لن يصل لهذه المنزلة إلا من كان صابراً موفقاً، وهناك آيات كثيرة عند التدبر لها، يدرك المسلم منزلة الصبر من الحكمة، وأثره في التوفيق لها، وسبحان الله عندما نقف عند هذه الآية نقف خاشعين، داعين الله سبحانه وتعالى أن يوحد أمة المسلمين، وأن يجعلهم يتمسكون بأصول الشريعة، وأن يتركوا هذه الفرعيات، التي ما جلبت على الأمة إلا التفرقة والنزاعات والخلافات التي شغلتهم عن الأصول وعن أمهات الأمور. ومنها قوله تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [البقرة: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧].

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ١١٢.

وقولـه تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الكهف: ٦٧] .

وقولـه تعالى: ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا ﴾ [الكهف: ٦٩] .

وقولـه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] .

ومـن خلال ما سبق يتضح أن الصبر من صفات الحكماء ولذلك أوصى الله به الرسل والأنبـياء وعـباده المؤمـنين ، فهـلاّ شمـر الـدعاة إلى الله سبحانه وتعالى عن سواعدهم حتى يعملوا بما أمر الله سبحانه وتعالى من الصبر وبذلك ، يتحصل للإنسان الحكمة في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى .

١٣ - الرفق ولين الجانب :

وخـير مـا نختـم بـه هذه الأسس والأركان المؤدية للحكمة ، هو الرفق واللين ، فإن الله رفـيق يحب الرفق ، والرسول ﷺ يقول: «**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه**»(١) .

وكان ﷺ وهو الرفيق بأمته يوصي صحابته بالرفق والسكينة دائماً ، وخاصةً وقد مدح الله سبحانه الرسول ﷺ فقال: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

فالـرفق واللـين مـن سمـات الحكمـاء ومـما تجدر الإشارة لـه هنا أن هناك فهماً خاطئاً لمفهـوم اللـين ؛ حـيث يتـصور الكـثير أن الـرفق واللـين مرادف للضعف . وهذا طبعاً فهم خاطـئ ، إن الـرفق واللين لا يضاد القوة ولا يستلزم الضعف ، وإنما يضاد العنف والفظاظة والغلظة ، ومن الأدلة على ذلك:

أن الله تعـالى وصـى الرسول ﷺ باللين ومدحه لذلك ونفى عنه الفظاظة والغلظة ، ولا يُمدح إلا بالممدوح .

---

(١) صحيح مسلم٢٥٩٣ ، ٢٥٩٤ .

أن الرسول ﷺ من أقوى الرجال - بل هو أقواهم - وهو مع اللين والرحمة والرفق وخفض الجناح للمؤمنين وحتى لغير المؤمنين .

الرسول ﷺ أوصى الذي يريد أن يذبح ذبيحته باللين والرفق ، والذبح من مظاهر القوة لا الضعف . قال ﷺ : «... **وليحد أحدكم شفرته فليرح ذبيحته**»[١] .

وفي هذا الحديث دليل على أن القوة باللين والرفق ؛ فحد الشفرة دليل على القوة بلين ورفق .

أن الجهاد مظهر من مظاهر القوة - بل هو القوة بعينها - ومع ذلك ينهى فيه عما يؤدي إلى العنف والغلظة ، فنهى عن التمثيل بالأعداء ، وقتل الشيوخ ، والنساء ، والأطفال ، وقطع الشجر ، ومن هذا يتضح أنه لا منافاة بين اللين والرفق وبين القوة وكلها من صفات الحكماء .

وكانت هذه من أهم وأبرز الأركان للحكمة ، وأحياناً قد تجتمع هذه الأركان في شخص واحد - وهو نادر طبعاً - ، وقد تتوافر في مجموعة من الأفراد كلها ، وكما ذكر العلماء أن المجدد قد يكون فرداً واحداً وقد يكون مجموعة من العلماء ، والدعاة يجددون لهذه الأمة أمر دينها[٢] ولهذا فإن الحكمة قد تكون كاملة وقد تكون نسبية وهو الأكثر ، وهذا المفهوم يساعدنا في البحث عن الحكمة والحكماء عند مواجهة الأحداث والأزمات وهو المطلوب .

* * * * *

(١) صحيح مسلم ١٩٥٥ .
(٢) انظر كتاب التجديد والمجددون .

المبحث الثامن
الكلمة الطيبة

بالكلمة الطيبة تستطيع أن :

١- تنادي المدعو وتدعوه بأحب الأسماء إليه وأوقعها في نفسه ، فهو أسلوب محبب إلى القلب المدعو .

٢- تدعو للمدعو بأن يهديه الله ويشرح صدره ويفتح عليه .

٣- تشوق المدعو إلى الاستجابة لأمر الله وأمر رسوله من خلال الترغيب في الخير والترهيب من الشر .

٤- تربط حياة المدعو بمعاني الإسلام قولاً وعملاً من خلال العيش معه عيشاً جماعياً .

٥- تشجيع كل عمل إسلامي تراه أو تسمع به ، فهي وسيلة لزرع الحس الإسلامي في نفوس الناس .

٦- تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة .

٧- تُذكّر المدعو بفضائل الأعمال الصالحة ، فهي من أهم الحوافز إلى عمل الخير والاستزادة منه .

٨- تشكر كل من ساهم في نشر الخير والدعوة ، ففي هذا الشكر تشجيع للعاملين للعمل الخيري والدعوي .

٩- تطرح مشاريع خيرية ودعوية في المجالس العامة والخاصة ولك أجر الدلالة على الخير .

١٠- تشجيع كافة أعمال البر والخير لاسيما في مجال الدعوة ونشر العلم .

١١- تكتب مقالاً في مجلة أو جريدة أو إنترنت وغيرها من وسائل الإعلام المقروءة والمرئية .

١٢- تقدم نصيحة إلى الآخرين ، فالدين النصيحة .

١٣- تهدي ضالاً ، وتعلم جاهلاً ، وترشد تائهاً ، وتذكر غافلاً .

١٤- تدعو كافراً إلى الإسلام .

١٥- تبذل شفاعة حسنة .

١٦- تُقدم رأياً وتقترح فكرة .

١٧- تروح قلباً وتنفّس كربة .

١٨- تبلغ آية وتروي حديثاً وتنقل فتوى .

١٩- تُحي سنة وتميت بدعة .

٢٠- تنشر دعوة ، وتنشط خاملاً ، وتنمي موهبة وتخط مشروعاً .

٢١- تشغل الناس بالله تعالى وأمره ونهيه وجنته وناره .

٢٢- تعلن عن محاضرة أو كتاب أو شريط مفيد .

٢٣- تقتنص الفرصة بالكلمة الطيبة في الحالات التالية :

- رفيق السفر في القطار أو الطائرة .
- فرصة اللقاء العابر على الوليمة أو أي مناسبة .
- جلسة استراحة في نادٍ أو مستشفى أو دائرة حكومية .
- جلسة المرافقة في الدراسة .
- مجال ارتباط في التجارة أو أي معاملة .
- في السوق وعند الشراء ، أو في الحدائق العامة أو في المسجد أو في التعاريف مع الغير في السفر .

بهذه الوسائل للكلمة الطيبة: قد تنشئ دعوة ، وقد تبني مؤسسة خيرية ، وقد ينقذ الله تعالى بها قلوباً من السبات ، وقد يخرج بها الله أمماً من عالم الأموات ، وقد يتحول المجتمع بأكمله من الانحراف إلى الصلاح بإذن الله تعالى .

والموفق السعيد من وفَّقه الله لكلمة الخير التي تنتشر في الآفاق فيكون له أجرها وأجر من يعمل بها إلى ما شاء الله .

ومن هنا ينبغي للداعية الإيجابي ألا يزهد أبداً بما عنده من العلم والخير ، أو يبتعد عن تبليغ الأمانة ، فما يدري أين يكون ومتى تؤتي كلمته عطاءها ومتى تثمر؟ . وصلى الله وسلم على سيدنا محمد .

من الكلمات التي ينبغي للداعية استخدامها :

بعض الكلمات الطيبة التي ينبغي على الداعية أن يمارسها أثناء كلامه مع الناس:

- جزاك الله خيراً .
- بارك الله فيك .
- عفا الله عنك لم فعلت ذلك .
- غفر الله لك .
- أشكرك أخي الكريم .
- رحمك الله تعالى .
- معذرة أخي الحبيب .
- لو سمحت أخي الفاضل .
- ما شاء الله لا قوة إلا بالله .
- لو تكرمت أخي المسلم .

إلى غير ذلك من الكلمات الطيبة التي تطرب الأذن ، وتطمئن القلب وتحببك إلى الآخرين .

فلتكن الكلمة الطيبة شعارك ، ولتجر الكلمة الطيبة دوماً على لسانك .

كيف تصبح دليل خير للآخرين ؟

٢ - خمسون فرصة دعوية لهداية الآخرين إلى الله :

١- السيرة الحسنة وسيلة فاعلة لجذب الناس إلى طريق الخير .

٢- اربط حياة من حولك بالإسلام بذكر فضائله وقدرته على إسعاده للإنسان في الدنيا والآخرة .

٣- وَثِّق الصلة مع الأقارب والأرحام ، واكسب مودتهم بالكلمة الطيبة والخدمة العامة حتى يشعر كل فرد بأن لـه علاقة خاصة بك .

٤- حمّل من حولك هَمَّ الدعوة والعمل للإسلام .

٥- اصنع من صديقك وقريبك وزميلك داعية إلى الله من خلال العيش معه عيشاً جماعياً .

٦- رغب في الخير: وهو كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة لأمر الله ورسوله ﷺ . ورهب من الشر: وهو كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق ، وهي وسيلة لها تأثيرها في النفوس ، فمارسها بحكمة واتزان .

٧- إظهار المحبة والمودة والشوق أثناء المقابلة ، والمهاتفة ، والدعاء للشخص المقابل بأدعية تؤثر في نفسه مثل: رحمك الله ، هداك الله ، فهي وسيلة للتآلف وزيادة المحبة .

٨- الحرص على التعارف فهي بداية انطلاقة لدعوة الآخرين إلى الهداية والصلاح .

٩- الحرص على دعوة من تتوسم فيهم الخير والفلاح من الأصدقاء وأبناء الحي .

١٠- المشاركة الذاتية في الرحلات الإيمانية والزيارات الأخوية مع الحرص على تقديم ما ينفع من أمور الخير .

١١- محاضرة عامة في موضوع حيوي مناسب .

١٢- درس يومي أو أسبوعي منتظم .

١٣- خطبة (جمعة - عيد . . .) .

١٤- إلقاء موعظة مؤثرة في مسجد أو في اجتماع ، مع مراعاة الحكمة في اختيار الوقت

المناسب والموضوع الملائم .

١٥- تقديم نصيحة هدية لمن تلاحظ عليه قصوراً أو ارتكاب معصية ظاهرة .

١٦- نشر الكتاب أو الكتب بطريقة مشوقة على حسب مستوى المدعو المعرفي والعقلي ؛ ليكون تأثيره أقوى في نفسية المدعو .

١٧- توزيع الشريط الإسلامي المناسب ، خاصة مع من لا يميل إلى القراءة (اترك في سيارتك مجموعة مناسبة من الكتيبات والأشرطة لتوزيعها على من تلقاه وتتلمس فيه الخير) .

١٨- نشر المطويات التي تعالج موضوعاً معيناً يناسب من توزعه عليهم ، وهي تتميز بأنها تُقرأ في دقائق معدودة .

١٩- إشاعة كل عمل إسلامي يراه الداعية أو يسمع به وهي علامة على حب العمل للإسلام .

٢٠- تأليف الكتيبات والرسائل ، وهي من الوسائل التي يبقى نفعها ، وثوابها لا ينقطع .

٢١- الرسالة ، وهي أن يقوم الداعية بكتابة رسالة إلى مدعو ينصحه ويدله على الخير ، أو ترك ما هو عليه من أخطاء ، مع مزج هذه الرسالة بالعاطفة والرقة واللفظ الجميل .

٢٢- شكر كل من أسهم في دعم الدعوة والثناء عليه من خلال المقابلة أو المهاتفة أو المراسلة أو الفاكس أو عبر شبكة الإنترنت ، وفي هذا تشجيع له على مواصلة العطاء الدعوي .

٢٣- التفكير فيما ينفع الدعوة والعمل الإسلامي والتخطيط الجاد له ؛ لأن أول خطوة للعمل الجاد هو التفكير ، لذا على الداعية أن تكون له جلسة تفكير لإيجاد الجديد للوسائل الدعوية أو تطوير ما هو قائم .

٢٤- الدعاء للمدعو بأن يهديه الله تعالى ويشرح صدره ويفتح عليه ، وهذا أسلوب قرآني: ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾[الأعراف: ٨٩] ، وأسلوب

نبوي ، قال ﷺ : «**اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون**»[١] .

٢٥- تشجيع كافة أعمال البر والخير ، ولاسيما في مجال الدعوة ونشر العلم وتقديم الخدمات .

٢٦- طرح مشاريع خيرية ودعوية في المجالس العامة أو الخاصة ، مثل :

أ- كفالة داعية .

ب- تفطير صائم .

ج- كفالة يتيم .

د- طباعة كتاب .

هـ- وقف خيري .

وفي طرح مثل هذه المشاريع فائدة ، وهي تعريف الناس بها ودلالاتهم عليها للمشاركة فيها ، وبث الحس الدعوي لديهم .

٢٧- تخصيص وقت دعوي (ساعة في الأسبوع مثلاً) لزيارة الأرحام والجيران ، وأن تكون الزيارة هادفة بمعنى: أن يضع الداعية هدفاً تربوياً يحققه من خلال تلك الزيارة .

٢٨- الدلالة على كل خير للمسلمين ، فكن - أخي الداعية - دليل خير للآخرين . "ولك مثل أجور من تبعك منهم" .

٢٩- استثمار الفرص والمناسبات وتوظيفها لنشر الخير كـ (رمضان ، الحج ، الأعياد ، الأفراح ، الأتراح ، المجالس العائلية والخاصة ، . . .) والداعية الناجح: من يمتلك صفة حسن استغلال الفرص وتوظيفها في خدمة الدعوة ، بل يصنع الفرصة ويوظفها في خدمة الدين .

٣٠- دعوة فرد بعينه ومحاولة جذبه إلى طريق الهدى والاستقامة ولك - إن شاء الله -

---

(١) البخاري .

أجر صلاحه وهدايته .

٣١- المشاركة في المجلات الإسلامية وذلك بدعمها :

أ - معنوياً بالمراسلة والتشجيع . ب - مادياً بالاشتراك فيها .

٣٢- تقوية العلاقة بالمؤسسات الدعوية والإغاثية والمشاركة فيها بقدر الإمكان وخاصة في المواسم ؛ كرمضان ، الحج ، الأعياد ، الأفراح ، المجالس العائلية . . . إلخ) .

٣٣- تسخير وتوظيف الطاقات والمواهب والقدرات لخدمة هذا الدين .

٣٤- الحوار والمناقشة الهادفة بين اثنين فأكثر حول قضية من القضايا بهدف إحقاق الحق أو الدفاع عنه بالحجة والبرهان .

٣٥- ملازمة الإمامة في أحد المساجد ، وذلك لتفعيل دور المسجد ، ودعوة أهل الحي للهداية والعمل الصالح ، قال تعالى : ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤] .

٣٦- المساهمة في دعم نشاطات الدعوة مادياً ومعنوياً: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [الأنفال: ٧٢] .

٣٧- التعاون الدعوي مع الآخرين والاستفادة منهم لنشر الدعوة الإسلامية بأقصى وقت ممكن: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٢] .

٣٨- التخطيط بجدية لبرامج الدعوة ، وضع خطة يومية ، أسبوعية ، شهرية ، سنوية ، مناسبات ، مستقبلية . . . .

٣٩- استثمار همة الناس والاستفادة منهم في متطلبات الدعوة:

أ - بناء مساجد .

ب - إقامة المنشآت النافعة ونحو ذلك .

٤٠- تسخير البيت في خدمة الدعوة وتأثيره على الأحياء المجاورة وذلك بنشر الدعوة بينهم .

٤١- المبادرة الذاتية لفتح نشاط دعوي مناسب مثل :

أ - مجلس حارة . ب - نشاط مدرسي . ج - تفعيل جماعة المسجد .

د - نشاط عائلي . هـ - إقامة معرض للكتاب والشريط الإسلامي أو معرض جراحات العالم الإسلامي .

٤٢- تنظيم - إن أمكن - جولة وقافلة لدعوة أهل القرى والمناطق النائية .

٤٣- الاستعداد الدعوي للمناسبات الإسلامية ، وذلك بإعداد ورقة عمل لممارستها عملياً مثل: (رمضان - الحج - العيد . . .) .

٤٤- قدِّم رأياً واقترح فكرة فلعلك تكون ممن سن في الإسلام سنة حسنة .

٤٥- القيام برحلة إيمانية إلى مكة المكرمة أو المدينة المنورة لمجموعة من الشباب من أبناء الحي لتربيتهم ودعوتهم إلى الله .

٤٦- الاستفادة من حملات الحج والعمرة من خلال إعداد البرامج التربوية والثقافية .

٤٧- الاستفادة من الشبكة العالمية (الإنترنت) في الدعوة إلى الإسلام ونشر مبادئه السمحة .

٤٨- تخصيص ساعة في اليوم للقراءة في الكتب الدعوية ، لزرع الحس الدعوي الذاتي ، ومعرفة الوسائل والأساليب الجديدة وكيفية ممارستها دعوياً في واقع الناس .

٤٩- المشاركة الدعوية في وسائل الإعلام من صحافة وإذاعة وتلفاز وغيرها .

٥٠- وأخيراً : أن يستشعر الداعية المسلم مسؤوليته تجاه دعوة الإسلام وتبليغها للناس بأقواله وسلوكه وأعماله ، فتعيش الدعوة حية في قلبه ، متوجهة في ضميره ، تجري في دمائه ، فتنقله من الفتور والكسل إلى الحركة والعمل ، ومن حظوظ النفس وشهواتها إلى احتياجات الدعوة وواجباتها (الرائد دروس في التربية والدعوة) .

* * * * *

المبحث التاسع
كيف ندعو غير المسلمين إلى الاسلام؟

١ - الإحسان لغير المسلمين في المجتمعات الإسلامية من الوسائل الهامة في دعوتهم، فقد شرع الإسلام لغير المسلمين من الذميين والمستأمنين المعاملة الحسنة لقوله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة: ٨].

وهذه الآية أصل في معاملة غير المسلمين المعاهدين، وحكمها باق غير منسوخ، قال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله: معنى الآية الرخصة في الإحسان إلى غير المسلمين والصدقة عليهم إذا كانوا مسالمين بموجب عهد أو أمان أو ذمة.

القرآن والسنة يدعوان إلى الإحسان:

وفي القرآن الكريم نصوص كثيرة في ضرورة الإحسان إلى الناس في القول والعمل وإيجاب العدل معهم قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل: ٩٠]. وقال تعالى: ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: ٨٣]، أما السنة ففيها الكثير من الشواهد على الإحسان والعدل مع غير المسلمين، كما أن فيها عدداً من النصوص التي تبين عاقبة الظلم خاصة ظلم أهل الذمة، وتوعد من ظلمهم بأن يكون حجيجه يوم القيامة، منها قوله ﷺ: «**ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة**» وأن عمر رضي الله عنه كان يقول: "أوصيكم بذمة الله فإنها ذمة نبيكم"[1] وكان يقول: أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيراً أن يفي لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم وألا يكلفوا فوق طاقتهم. وكان العلماء والقضاة يسيرون على هذا النهج من النصح للخلفاء بأن يرفقوا بأهل الذمة، لقد جاء في كتاب الخراج لأبي يوسف قوله لأمير المؤمنين هارون الرشيد "وقد ينبغي يا أمير المؤمنين - أيدك الله - أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد ﷺ والتفقد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ

(١) صحيح البخاري.

شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم.

لا بد من التفريق بين الإحسان والولاء والبراء. وجدير بالذكر هنا أن هناك فرقاً بين البر المسموح به وبين الموالاة والمودة المحرمة، فهناك فرق ظاهر بين الإحسان في المعاملة للمعاهدين وبين مودتهم بالقلوب، فالأمر بالبر والإحسان إليهم لا يستلزم مودتهم بأي حال من الأحوال، فقد أوصى الله تعالى بالإحسان إلى الوالدين الكافرين، مع أنه نهى عن مودة الآباء والأبناء إن استحبوا الكفر على الإيمان، قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال تعالى في شأن الوالدين: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [العنكبوت: ٨]، قال ابن حجر رحمه الله "البر والصلة والإحسان لا يستلزم التحابب والتوادّ المنهي عنه".

من صور الإحسان الثابتة في الشرع:

مما سبق يتبين أن الإحسان لغير المسلمين من الأمور الهامة في دعوتهم وتحبيب الإسلام إليهم، ومما أباحه الله في ذلك ما يلي:

الصدقة: فيجوز للمسلم أن يتصدق على الجار الكافر من غير المحاربين من غير الزكاة للآية التي ذكرتها، وقد مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند مقدمه إلى أرض الشام بقوم مجذومين من النصارى فأمر أن يعطوا من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت. ثانيا: صلة القرابة وتبادل الهدايا وحسن الجوار. صلة الرحم من الأخلاق المحمودة عند كل عاقل وفي كل دين، ولا بأس أن يصل المسلم المشرك قريباً كان أو بعيداً، وتتأكد الصلة في حق الوالدين كما سبق ذكره في الآية قبل ذلك، وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: قدمت أمي وهي مشركة عند رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة أفأصل أمي؟ قال: «**نعم صلي أمك**» قال ابن حجر: قولها راغبة "أي راغبة في شيء

تأخذه وهي على شركها"[1] ولهذا استأذنت أسماء أن تصلها ولو كانت راغبة في الإسلام لم تحتج إلى إذن .

وكما يجوز صلة القريب والإهداء إليه ، فإنه يجوز قبول هديته لأن النبي ﷺ قبل هدية زينب بت الحارث اليهودية امرأة سلام بن مشكم في خيبر ، حيث أهدت له شاة مشوية مسمومة كما ثبت ذلك في السنة .

قال ابن باز رحمه الله : ويحسن إليه - أي غير المسلم - ويتصدق عليه إن كان فقيراً ، ويهدى إليه إن كان غنياً ، وينصح له فيما ينفعه لأن هذا مما يسبب رغبته في الإسلام والدخول فيه .

إعانة المحتاج من صور الإحسان :

ومن ذلك أيضاً إعانة المحتاج سواء كان بكفالة العاجز منهم أو كبير السن ، وهذا هو ما سار عليه الخلفاء الراشدون في صدر الإسلام في معاملتهم لأهل الذمة ، ففي خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه كتب خالد بن الوليد رضي الله عنه في عقد الذمة لأهل الحيرة بالعراق - وكانوا نصارى - وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله .

وفي خلافة عمر بن عبد العزيز رحمه الله كتب إلى عدي بن أرطأة: وانظر من قبلك من أهل الذمة قد كبرت سنه وضعفت قوته وولت عنه المكاسب فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه ، ولمن أراد أن يتعرف على المزيد فى هذا الموضوع فليرجع إلى كتابنا الموسوم بـ (المنهج القرآنى فى مجادلة أهل الكتاب) ففيه شرح تفصيلى . . ، ويدخل في ذلك إغاثة الملهوف وإسعاف المحتاج منهم كما لو وجد مصاباً أو من انقطع به الطريق فلا حرج أن يعينه ، قال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله : قضاء حاجة الكافر لا بأس بها إذا كان ليس فيه معصية اهـ .

---

(١) رواه البخاري .

زيارة مرضاهم وتعزيتهم:

ومن ذلك أيضا عيادة مرضاهم، واستند من أباحها من العلماء إلى ما جاء عن أنس رضي الله عنه أن غلاماً ليهودي كان يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده فقال: أسلم فأسلم [1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "عيادته - يعني النصراني - لا بأس بها فإنه قد يكون في ذلك مصلحة لتأليفه على الإسلام.

ويؤخذ مما سبق أن على الدعاة إلى الله ألا يوجهوا دعوتهم إلى الكبار فقط بل يوجهوا دعوتهم إلى الصغار أيضا كما فعل عليه الصلاة والسلام.

أما التعزية ففيها خلاف بين العلماء، والظاهر أنها تجري مع المصلحة، قال الشيخ ابن باز رحمه الله: "لا بأس أن يعزيهم في ميتهم إذا رأى المصلحة الشرعية في ذلك، وقال ابن عثيمين رحمه الله: التعزية جائزة إذا كان هناك مصلحة شرعية.

وقد سئل الشيخ ابن باز عما يقوله عند تعزيته، فقال يقول له: جبر الله مصيبتك أو أحسن لك الخلف بخير، وما أشبه ذلك من الكلام الطيب، ولا يقول غفر الله له ولا يقول: رحمه الله إذا كان كافرا أي لا يدعو للميت، وإنما يدعو للحي بالهداية وبالعوض الصالح ونحو ذلك.

وليعلم أن الداعية المسلم يستطيع أن ينتهز فرصة التعزية بإدخال السكينة والهداية إلى قلوب غير المسلمين ودعوتهم عمليا بالقدوة والموعظة الحسنة، فإنه عندما ترق القلوب وتتأثر بالمصائب يكون انقيادها إلى الحق أقرب وكفى بالموت واعظا.

هذه بعض صور الإحسان التي يمكن للدعاة إلى الله استغلالها مع غير المسلمين مما دل عليه الكتاب والسنة وذلك بهدف تحبيب الإسلام إليهم وترغيبهم في الدخول فيه. إن المسلم مطالب خاصةً المسلم الذي آتاه الله علماً وفهماً وإدراكاً أن ينتفع بعلمه وفكره وأن ينفع الناس بذلك.

---

(١) صحيح البخاري.

ولا شك أن هناك صفات ينبغي أن يتحلى بها المسلم ليكون قدوة لغير المسلمين، عندما يرونه يحسون أن الإسلام يتجسد فيه، ومن هذه الصفات أن يُقبل المسلم على نفسه ويجعلها خاضعة لكل ما يتلقى عن الله ورسوله من الأوامر والنواهي، كما أن المسلم مطالب بأن يستسلم لله ويتجرد له ليكون أدعى للقبول.

ثانياً: ومن العوامل الحساسة المهمة التي ينبغي على المسلم اتباعها هو الأسلوب الحسن في نطاق الكتابة والخطابة والتحدث والنقاش، وبالأسلوب يستطيع المسلم أن يصيب الهدف ويبلغ القصد بأقل التكاليف وأيسرها.

إن عرض المسلم لأفكاره ومبادئه بأسلوب شيق جذاب يحبب الآخرين إلى الإسلام فلا ينفرون أو يبتعدون، كما أنه ينبغي مخاطبة الناس على قدر عقولهم ومداركهم، فلا يخاطب العمال الكادحين بأسلوب الفلاسفة أصحاب المنطق ولا يناقش الملاحدة الماديين بلسان عاطفي خال من الحجة والبرهان.

والنفوس جبلت على حب من أحسن إليها بل وقد تدفعها القسوة والشدة أحياناً إلى المكابرة والإصرار والنفور فتأخذها العزة بالإثم. وليس معنى اللين المداهنة والرياء والنفاق وإنما اللين ببذل النصح وإسداء المعروف بأسلوب دمث مؤثر يفتح القلوب ويشرح الصدر كما قال تعالى موصياً نبيه موسى وهارون عليهما السلام: ﴿ اذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه: ٤٣ - ٤٤].

ثالثاً: معرفة الشخص المدعو والتعرف على أفكاره ومفاهيمه وتصوراته وعلله ومشكلاته لأن ذلك وسيلة إلى التعرف على المنافذ التي تنفذ إلى نفسيته.

إن المسلم في الحقيقة هو مشخص للمرض ومقدم للعلاج لمن يحتاج إليه، كما أنه لا ينتظر أن يأتي إليه الناس بل إنه يسعى إلى البحث عنهم وزيارتهم بين وقت وآخر وفي فترات مناسبة لهم بل ودعوتهم في مختلف المناسبات والمشاركة في أفراحهم وأتراحهم.

رابعاً: والمسلم في دعوته الناس دائماً يؤكد على معاني العقيدة الإسلامية ويحاول أن يزرع بذرة الإيمان بالله في قلب المخاطب، وأنه هو الخالق الرازق المحيي المميت، وأن هناك حياة بعد الموت، وأن هناك حساباً وعقاباً يثاب فيه المحسن مقابل إحسانه ويعاقب فيه المذنب

على إساءته .

فالحديث عن العقيدة الإسلامية وتجلية معانيها وأصولها وما تستلزمه وتتضمنه هو الأساس في دعوة الداعي وهي مما يجب أن يؤكد عليه دائماً ولا يغفل عنه مطلقاً لأنها الأصل في الإسلام فإذا استقام له هذا الأصل واستجاب له المدعوون بعد كفرهم سهل عليه إقناعهم بمعاني الإسلام وفروعه .

كما أنه عند الحديث عن واقع المسلمين وممارستهم يحاول المسلم أن يوضح أن ما يصيب المسلمين اليوم من تقهقر وتخلف وما هم فيه من تفكك إنما هو بسبب بعدهم عن الإسلام .

وإن إدراك المدعو إلى الإسلام لأصول العقيدة الإسلامية ومعرفته شروط لا إله إلا الله يسهل أمر تعليمه وتدريسه بقية أصول الإسلام وأركانه بل ويساعد على تحفيظه القرآن الكريم .

خامساً: إن المسلم مأمور بالصبر على الدعوة فهو لا يستعجل نتائج دعوته عندما يدعو الناس إلى الإسلام ، كما أن اليأس لا يعرف إلى قلب المسلم سبيلاً ولا يمكن أن يصيبه الوهم إذا تأخر ظهور النتائج المرجوة من الجهود التي بذلها في سبيل دعوة الآخرين إلى الإسلام ، ومن الصبر على الدعوة أن يقوم بواجب النصيحة في المواقع التي تجب فيها النصيحة وتنفع فيها الكلمة الحقة دون خوف من الناس مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩] .

سادساً: إن المسلم مأمور بالتضحية في سبيل الله ، التضحية بالوقت . . التضحية بالجهد . . التضحية بالكفاءة الفكرية والمكانة الاجتماعية والتضحية بالمستقبل اللامع والتضحية بالأماني والآمال ، يقتدي في ذلك بسلف الأمة الذين ضربوا أروع أمثلة التضحية في كل ما قاموا به في سبيل الدعوة ،واقرءوا إن شئتم القرآن والسنة وسترون الأمثلة الكثيرة فى التضحية والامتثال لله تعالى .

فما أحرى الأحفاد أن يسلكوا سبيل الأجداد السابقين ، إنه لن تقوم للمسلمين قائمة ما لم يتصفوا بهذه الصفة الكريمة - التضحية - ذلك أنهم في حالة فقدانها فإن هذا يعني التسابق

على الدنيا والتعلق بالأمور السافلة ، ذلك أن التضحية بمعناها الحقيقي هو أن يرسم في ذهن المسلم مفهوم تقديم مصلحة الإسلام على كل مصلحة والعيش بالإسلام تحت أية ظروف ، لا تلهيه تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة والجهاد في سبيل الله .

إن قلوب المسلمين لا ينقصها التحمس للدين والفضيلة كما لا يروقها ما ترى من عمليات الهدم والتضليل التي يتعرض لها الإسلام ، وكذا فهم حريصون كل الحرص على الإسلام ولكنهم يحتاجون إلى من يشرح لهم الدليل ويوضح السبيل .

أخي المسلم : كن أنت القائد الذي يريهم السبيل ويبين لهم الدليل فتكون بذلك قد ساهمت في مواجهة المخاطر التي يتعرض لها الإسلام والمسلمون في أنحاء الأرض وتكون قد دفعت عن المسلمين شراً كبيراً وفتحت لهم باباً واسعاً بدعوة من يأتيك إلى الإسلام .

* * * * *

المبحث العاشر
أمور تندر فيها مراعاة الحكمة

هناك أمور وقضايا كثيرة يتساهل كثير من الناس في مراعاة الحكمة فيها، مع أنها أولى من غيرها؛ لأهميتها ولما يترتب على ترك الحكم فيها من آثار سلبية، ولسنا في مقام الحصر لهذه الأشياء وتعدادها، ولكن سنذكرها على سبيل المثال لا الحصر:

الوالدان، والأولاد، والزوجة، والأهل، والأرحام: فموضوع بر الوالدين، وتربية الأولاد، ومصاحبة الزوجة ومعاشرتها، وصلة الأهل والأرحام والأقارب موضوع وقع الناس فيه بين إفراط وتفريط، قليل منهم من يُوَفق إلى الأسلوب الأمثل ويؤدي حق الله في هذا الجانب.

فمثلا الزوجة، هناك من أساء فهم حق القوامة التي منحه الله إياها، الآية الكريمة تقول: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤].

فتسلط على زوجته، واعتبرها مملوكة له، ويعاملها معاملة السيد لمملوكه، ويتجاهل حقوقها كأنها قطعة أثاث في البيت، ولكن المنهج الشرعي في معاشرتها، قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

وهذا استعباد لم يأذن به الله، وآخرون خضعوا لسلطان الشهوة؛ قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [آل عمران: ١٤].

فاستعبدتهم النساء، وأصبحت المرأة هي السيدة في البيت فلا يقضي أمر من دونها، ولا يعتذر عن أمر من مطالبها، فضاعت القوامة، ولن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة.

والقليل من وُفّق للعمل بهذه الأدلة، قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ﴾ [النساء: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وقال عز وجل: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

وقول الرسول ﷺ: «**لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها آخر أو قال**

غيره»[١].

وقوله ﷺ: «إنما هن عوان[٢] عندكم»[٣].

وغير ذلك من الآيات والأحاديث التي تبين حق الزوج والزوجة فالحكيم هو من يراعي الحكمة في التعامل مع زوجته وأولاده.

١ - التعامل مع المجتمع:

لا يخلو مجتمع من المجتمعات من التناقضات، وكثيرة هي المتناقضات الآن، ويحتاج المجتمع إلى الحكمة في التعامل حتى يكون هناك إيجابيات، وبعداً عن السلبيات، فلا إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا جفاء.

٢ - التعامل مع أهل البدع:

هذا مطلب مهم للغاية، وقد بيّن العلماء المنهج الشرعي في التعامل مع أهل البدع، وفرقوا بين البدع صغيرها وكبيرها، والظاهر منها والمستتر، كما فرقوا بين الداعي إلى بدعته، والقاصر لها على نفسه، وليس هذا مكان بيان لذلك، ولكن أردت أن أشير إلى الخلل الواقع في ذلك من قبل بعض الدعاة وطلبة العلم، مما يجانب الحكمة ويضادها، فالأصل هو كتاب الله عز وجل، وسنة رسوله ﷺ، والأصل أن نبتعد عن البدع وألا نستدرك على الرسول ﷺ لأن البدع تأتي من باب الاستحسان، والذي يستحسن شيئًا ويفعل أشياء ما فعلها الرسول ﷺ ولا الصحابة، فكأنه استدرك على الرسول ﷺ وقال: يا رسول الله لم تبلغ الدين كاملاً، والله عز وجل قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

٣ - في إنكار المنكر:

لماذا إنكار المنكر؟ وهل الأمر بالمعروف لا يحتاج إلى حكمة؟

ليس الأمر كذلك ولست بصدد بيان الأمور التي تحتاج إلى الحكمة، وإنما المراد هو

---

(١) رواه الإمام مسلم ٦٣/ ١٤٧٠.

(٢) أسيرات.

(٣) الترمذي ١١٦٣ وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجة١٨٥١.

الإشارة إلى ما يفتقر إلى الحكمة من حيث الواقع ، والمُشاهَد أن الإخلال بالحكمة في النهي عن المنكر أعظم من الإخلال بها عند الأمر بالمعروف ، وكذلك فإن ضوابط إنكار المنكر قد تخفى على الكثيرين أكثر من خفاء ضوابط الأمر بالمعروف ، وخلاصة القول أننا بحاجة إلى الحكمة عند الأمر بالمعروف ، ولكننا في حاجة أشد إليها عند إنكار المنكر ؛ لأنه لابد من مراعاة قاعدة المصالح والمفاسد ، وقاعدة سد الذرائع ، وغيرهما من القواعد الشرعية لماذا ؟ لأنه من لا يملك الحكمة في إنكار المنكر سيفتح على الأمة أبواباً من الشرور ، والمشاكل والمفارقات لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى ، ولهذا كان الإخلال بالحكمة له من الآثار السلبية التي لا تخفى على أحد كما بيّنا .

* * * * *

المبحث الحادى عشر
فن العتاب وفقه الخطاب

هناك ألوان كثيرة وفنون شتى للتحاور والتفاهم بين الناس، كما قال تعالى لموسى وهارون فى مخاطبة فرعون: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه: ٤٤]، فاللين وسيلة من وسائل الخطاب بين الناس للوصول إلى الهدف المنشود من الإقناع وغيره من مقاصد التحاور.

وهناك الشدة ورغم كونها على النقيض من اللين إلا أن لها مواضع لا بد منها، ولها ثمار ليست بمعزل عنها، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [التوبة: ٧٣].

وقال الشاعر[1]:

إذا أنتَ أكرَمتَ الكَريمَ مَلَكتَهُ ... وَإن أنتَ أكرَمتَ اللَئيمَ تَمَرَّدا

وَوَضعُ النَدى في مَوضِعِ السَيفِ بِالعُلا ... مُضِرٌّ كَوَضعِ السَيفِ في مَوضِعِ النَدى

وهناك العتاب وهو فنٌّ ولونٌ من ألوان الخطاب يختص بالمتحابين وأصحاب العلاقات المترابطة والوشائج القوية، وقد يكون من الخطورة بمكان إن لم يُستخدم على الوجه الأمثل، ويُوضع فى موضعه اللائق به.

ولقد تعلم النبى ﷺ من ربه - تبارك وتعالى - فقه العتاب حيث كان القرآن ينزل بالعتاب من الله - تبارك وتعالى - لخليله ومصطفاه سيد البشر ﷺ ليوجهه إلى الأمثل والأوفق والأرفق والأحسن من السياسات والقرارات، عندما يفعل النبي ﷺ ما يكون خلاف الأولى.

فمن ذلك أن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى وقد أسلم قديمًا جاء إلى النبي ﷺ وعنده صناديد قريش: عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم.

فقال عبد الله: يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله وكرر ذلك مرارًا وألح عليه

---

(١) المتنبي ٣٠٣ - ٣٥٤هـ أبو الطيب الشاعر الحكيم وأحد مفاخر الأدب العربي.

وود النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك؛ ليتمكن من مخاطبة الرهط طمعًا ورغبة في هدايتهم، وعبد الله لا يعلم تشاغله بالقوم فكره رسول الله ﷺ قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه فنزل قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ [عبس: ١ - ١٠]، فكان رسول الله ﷺ يكرمه ويقول إذا رآه: «**مَرْحَبًا بِمَنْ عَاتَبَنِي فِيهِ رَبِّي**»[1].

قال العلماء: ما فعله ابن أم مكتوم كان من سوء الأدب لو كان عالمًا بأن النبي ﷺ مشغولٌ بغيره، وأنه يرجو إسلامهم، ولكن الله - تبارك وتعالى - عاتبه؛ حتى لا تنكسر قلوب الضعفاء والمساكين؛ وما فعله النبي ﷺ كان نوعًا من المصلحة؛ لأنه بإسلام هؤلاء القوم تُسلم القبيلة كلها، إلا أن الله - تبارك وتعالى - وجهه إلى الأولى والأحسن وهو أن النظر إلى المؤمن وإن كان فقيرًا أصلح وأولى من الإقبال على الأغنياء طمعًا في إيمانهم.

فانظر إلى العتاب الرقيق في قوله تبارك وتعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ [عبس: ١]، بضمير الغيبة، تعظيمًا وإجلالاً له ﷺ ولم يقل: عبست وتوليت بلفظ المخاطب، لإيهام أن من صدر عنه هذا الفعل ليس هو ﷺ، والسامع لهذه الآيات للمرة الأولى لا يعلم من هو المقصود بها، وإن علم فليس في الأسلوب شدة أو نقمة إنما توجيه للأحسن والأصوب، كما أن في التعبير بضمير المخاطب في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ [عبس: ٣]، الإيناس بعد الإيحاش، والإقبال بعد توهم الإعراض.

وهكذا يكون العتاب الرقيق باستخدم الألفاظ الرقيقة التي لا تؤثر سلبًا على نفس سامعها بحيث ينسى أنه عتاب ويتحول إلى مُدافعٍ ومجادلٍ عن موقفه لِيُثْبِت أنه على صواب، ولا يؤتي العتاب - في تلك الحالة - ثمرته المرجوة.

ومن ذلك أيضًا عن ابْنِ عَبَّاسٍ أنه قال: لَمَّا أَسَرُوا الأُسَارَى في بدر قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: «**مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلاءِ الأُسَارَى**» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلإِسْلامِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ**» قُلْتُ: لا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَرَى الَّذِي

(١) تفسير القرطبي.

رَأَى أَبُو بَكْرٍ وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ فَتُمَكِّنَّ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ وَتُمَكِّنَّنِي مِنْ فُلَانٍ نَسِيبًا لِعُمَرَ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا فَهَوِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «**أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمْ الْفِدَاءَ لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ**» شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ [(١)] ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنفال: ٦٧] .

فالنبي ﷺ في هذا الموقف آثر السلامة ، وهو رأي كثير من أصحابه ، ولكن الله - تبارك وتعالى - أرشده إلى الأولى من ذلك وهو الشدة في هذا الموقف ؛ لأن هؤلاء هم صناديد الكفر وكبار أهل الضلال ، فالأولى معهم القتل والتنكيل بدلاً من العفو والصفح خاصة والدعوة في بداياتها وتحتاج إلى أن تظهر بمظهر القوة بين قبائل العرب ، وكان هذا هدفًا لا يعدله المال ، ولذا سُمي هذا اليوم بيوم الفرقان لعظمته في تاريخ الدعوة .

فعاتبه الله بقوله: (ما كان لنبي) فالخطاب ليس موجهًا مباشرة إلى رسولنا ﷺ ولكنَّ المعنى: لا يحق لأي نبي مهما كان أن يكون في هذا الموقف وعنده أئمة الكفر الذين حاربوه وأخرجوه ومكروا به وأرادوا قتله أن يعفو عنهم .

وهكذا يكون العتاب الرقيق الذي لا يوجه مباشرة إلى الملوم ؛ حتى لا يتشاغل بالدفاع عن نفسه ، وينسى في ظل الجو شديد السخونة أن يتعلم ويفهم المراد من التوجيهات السديدة ، والنصائح الرشيدة ، ويفهم عن اقتناع ورضا نفس أن الأولى هو فعل ما يرشد إليه العاتب .

ولقد تعلم النبي ﷺ أيضًا فقه العتاب وفنه من أحاديث ومواقف الأنبياء التي قصها الله تبارك وتعالى عليه ، وأعلمه بها فمن ذلك ما رواه أَبُو هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**نَزَلَ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ تَحْتَ شَجَرَةٍ فَلَدَغَتْهُ نَمْلَةٌ فَأَمَرَ بِجِهَازِهِ فَأُخْرِجَ مِنْ تَحْتِهَا ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَأُحْرِقَتْ فَأَوْحَى اللَّهُ**

(١) رواه مسلم .

إِلَيْهِ فَهَلا نَمْلَةً وَاحِدَةً» (١).

عاتب الله تبارك وتعالى هذا النبي الذي يقال: إنه العُزَيْر، بأنه قتل جماعة النمل لأنه لُدغ من واحدة فقط، فاسترعى الله انتباهه وقال له: «فَهَلا نَمْلَةً وَاحِدَةً».

والناظر لقوله تعالى: «فَهَلا نَمْلَةً وَاحِدَةً» يجد أنها لطيفة موجهة لما هو أرفق بهذا النبي؛ حيث إن الموقف لا يستدعي الشدة فالخطب يسير، وأمة النمل مهما بلغت لا تملك من أمرها شيئًا.

وعلى هذا المنوال من الأدب الجم والفقه العميق لفن العتاب تعامل النبي ﷺ مع أصحابه في المواقف التي تحتاج إلى ذلك، وتوجيههم إلى ما هو أصلح وأولى فكان ﷺ بذلك يهذب أصحابه ولا يلجئهم إلى الدفاع عن أنفسهم بل يلفت انتباههم إلى العبرة والعظة من العتاب.

ولقد حرص ﷺ أن تكون الصيغ والكلمات معبرة وموحية بالحب والعطف والشفقة على محدثه؛ لتنفذ هذه النصائح والكلمات إلى قلبه فيتأثر بها ويعمل بمقتضاها.

فمن ذلك ما رواه أبو سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا [بعد غزوة حنين] فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ وَلَمْ يَكُنْ فِي الأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمْ الْقَالَةُ حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَوْمَهُ فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنْ الأَنْصَارِ شَيْءٌ قَالَ: «فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَنَا إِلا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي وَمَا أَنَا قَالَ: فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ قَالَ: فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ قَالَ: فَجَاءَ رِجَالٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ: قَدْ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الأَنْصَارِ قَالَ: فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ ثُمَّ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَلَمْ آتِكُمْ ضُلالاً فَهَدَاكُمْ اللَّهُ

(١) رواه البخاري ٣٣١٩، مسلم ٢٢٤١، أبو داود ٢٥٦٥، النسائي ٤٣٥٨، ابن ماجة ٣٢٢٥.

وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ» قَالُوا: بَلْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ قَالَ: «أَلا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ» قَالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ قَالَ: «أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ وَمَخْذُولا فَنَصَرْنَاكَ وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ وَعَائِلا فَأَغْنَيْنَاكَ أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلامِكُمْ أَفَلا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي رِحَالِكُمْ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الأَنْصَارِ وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتْ الأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ اللَّهُمَّ ارْحَمْ الأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ» قَالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَفَرَّقْنَا.

في هذا الموقف المؤثر كان النبي ﷺ يستطيع أن يقول: أنا رسول الله؛ ويجب عليكم طاعتي فاسمعوا وأطيعوا، ولكنه ﷺ لم يفعل بل هذبهم بعتابه الرقيق الذي ما سمعه أحد من أهل القلوب الرقيقة إلا بكى مع بكاء الأنصار، وفهم العبرة والعظة المستهدفة في جو هادئ لهذا المقام، وهي أنه ترك الأنصار لإيمانهم وتقواهم، وتألف أناسًا سوف يكونون بعد ذلك حماة الإسلام وحصنه.

وأرسل ﷺ يومًا أحد صحابته عاملاً على الصدقة فجاء حين فرغ من عمله فقال: يا رسول الله هذا لكم وهذا أهدي لي، فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن صعد المنبر عشية بعد الصلاة وقال: «أَمَّا بَعْدُ فَمَا بَالُ الْعَامِلِ نَسْتَعْمِلُهُ فَيَأْتِينَا فَيَقُولُ: هَذَا مِنْ عَمَلِكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي فَهَلا قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَيَنْظُرَ أَيُهْدَى لَهُ أَمْ لا....»[1].

ورأى رجلاً آخر يغتسل في مكان فسيح بلا إزار، ولا يستتر عن أعين الناس فصعد ﷺ المنبر وقال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ؛ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسَّتْرَ، فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَتِرْ»[2].

وغيرها من المواقف التي تدل على أن النبي ﷺ لا يُعَرِّضُ باسم أحد من صحابته بل

---

(١) رواه البخاري ٦٦٣٦، مسلم ١٨٣٢، أبو داود ٢٩٤٦.

(٢) رواه أبو داود ٤٠١٢، النسائي ٤٠٦، صحيح الجامع ١٧٥٦.

يقول: «ما بال أقوام يفعلون كذا» ، «إذا فعل أحدكم كذا» يعاتبهم بأسلوب مهذب رقيق ليس فيه تجريح للمشاعر ولا غض من قيمة الشخص الذي اقترف خطأ ، فكان ﷺ مثلا حيًا للصحابة فى فقه التعامل مع الناس . بل كان يتعامل مع أهله - أعني زوجاته - بهذا الفقه فمن ذلك ما قصه ربنا تبارك وتعالى فى سورة التحريم حيث قال: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ ﴾[التحريم: ٣] .

أي أن النبي ﷺ استكتم حفصة سرًا بتحريم العسل على نفسه: (وأن أباك وأبا عائشة يكونان خليفتي على أمتي من بعدي)[1] ؛ فذكرته حفصة لعائشة فأظهره الله عليه ، فعرف بعضه وأعرض عن بعض .

أي: قال لها: إن الله أوحى إليَّ ما أفْشَيْتِ من السر فى تحريم العسل ، وأنك أخبرت عائشة بذلك ، وأعرض عن قوله: (إن أباك وأباها يكونان خليفتي على أمتي من بعدي) .

وهذا التغاضي عن كثير من أخطاء الأحبة والمقربين من شيم الكرام الأخيار الذين لا يلومون أحبابهم على كل ما يفعلون أو يأتون من أخطاء ولكن يكفي التعريض ببعضها والكف عن البعض الآخر .

ويُعَدُّ هذا من قمة فقه العتاب وفنه بمكان ، لا يصل إليه إلا من تأدب بآداب القرآن وتعلم من النبي العدنان ﷺ .

قال الحسن: ما استقصى كريم قط .

وقال سفيان: ما زال التغافل من فعل الكرام .

وعلى هذا يجب علينا أن نتعلم من النبي ﷺ الأساليب اللطيفة فى العتاب والمحاورة الرقيقة التي تجعل المعاتَب لا يخرج عن حب معاتبه ، ولا يجنح إلى الإعراض عنه بل يسمع ويطيع لأن معاتبه لا يبغي إلا صلاحه وكماله سواء فى الفعل أو القول .

أما إذا تخطى الأمر الحدود ، وتعدى الحرمات فهنا يقف النبي ﷺ زاجرًا آمرًا ناهيًا

---

(١) رواه الدارقطني في سننه عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس .

بشدة ، ولا مجال للعتاب فى هذه اللحظة إلا الزجر والهجر ، فعَنْ عَائِشَةَ: أَنَّهُ اعْتَلَّ بَعِيرٌ لِصَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ وَعِنْدَ زَيْنَبَ فَضْلُ ظَهْرٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِزَيْنَبَ: «أَعْطِيهَا بَعِيرًا» فَقَالَتْ: أَنَا أُعْطِي تِلْكَ الْيَهُودِيَّةَ فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَهَجَرَهَا ذَا الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمَ وَبَعْضَ صَفَرٍ[١] .

وما قاله ﷺ لأسامة بن زيد بن حارثة حين أراد أن يشفع فى المرأة المخزومية التى سرقت ويريد زيد أن لا تقطع يدها فغضب ﷺ من الحب ابن الحب وقال له بلهجة شديدة: **«أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»**[٢] .

هذه بعض المواقف من حياته ﷺ التى تبرز وتوضح ما للعتاب من قيمة جيوية فى ديننا وشريعتنا ، لعلنا نعتبر بها فى عصر الجفاء والغلظة علها أن تُبرد أكبادنا وتطفئ نار قلوبنا وتهدئ من روعنا .

* * * * *

(١) رواه أبو داود ٤٦٠٢ ، حسنه الألباني فى صحيح الترغيب والترهيب ٢٨٣٥ .

(٢) رواه البخاري ٣٤٧٥ ، مسلم ١٦٨٨ ، أبو داود ٤٣٧٣ ، الترمذي ١٤٣٠ ، النسائي ٤٨٩٥ ، ابن ماجة ٢٥٤٧ .

المبحث الثاني عشر
في إشاعة بعض الأخبار والمفاهيم

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾ [النساء: ٨٣] .

من القضايا التي تقل فيها الحكمة مما ظاهرها المسرة أو الخوف ، وفي باطنها الأحداث التي تخفى على الكثيرين ، وخاصة وقت الأزمات والحروب .

ولأن الحكمة ليست متاحة لكل واحد أمر الله رد الأخبار إلى الرسول في حياته وإلى سنته وعلماء الأمة بعد وفاته ، لأن أولئك هم الذين يدركون الحكمة ، ويعلمون ما وراء هذه الأخبار ، ومن ثم يقررون ما يناسب الحال وهم الذين يفقهون قول الرسول ﷺ : «**كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ما سمع**» (١) .

لأن كثيرًا من الإشاعات والأخبار ليست على ظاهرها ، بل قد تكون مكذوبة من أصلها .

١ - النقد وبيان الأخطاء :

كثير من الناس قد ضلوا في هذه المسألة ؛ فطائفة أطلقوا ألسنتهم دون حسيب أو رقيب ، وطريقتهم النقد والتجريح ، وإحصاء الأخطاء والمثالب للعلماء أو لطلاب العلم ولا يسمعون بمنقصة إلا وأذاعوها ، ولا مذمة إلا وأشاعوها ،

وهناك أيضاً طائفة أخرى اعتبروا النصيحة فضيحة ، والتنبيه على الأخطاء تجريح ، وجعلوا لبعض الأفراد والهيئات والجماعات قداسة لا تمس ومنحوهم حصانة لا ترفع ، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم .

ومن هنا فإن موضوع النقد وبيان الأخطاء موضوع حساس ، له ضوابط يجب أن تراعى ، وحدود لا يجب تعديها ولا تجاوزها ، ومراعاة هذا الأمر هو الحكمة التي نعنيها

---

(١) صحيح مسلم ٥ .

والضالة التي ننشدها .

هـذه نماذج من أمور كثيرة يجب أن تراعى الحكمة فيها ، ونلحظ تساهل كثير من الناس في ذلك مما ترك كثيراً من الآثار السلبية في واقع المسلمين ومجتمعاتهم .

٢ - مسائل متعارضة سوى الناس بينها :

هـناك مـسائل وقـضايا اخـتلط فيها الأمر على المسلمين ، فسووا بينها مع أنها متضادة ومتعارضـة ، وبيـنها خـيط رفـيع لا يدركـه إلا الحكمـاء ، ممن وهبهم الله البصر والبصيرة ، فـالأول مذمـوم ، والثانـي ممـدوح بـل ومطلـوب ، ولـذلك بعـض الـناس يـصف الكـريم بالإسـراف ، وآخـرون يـصفون المسرف بالكـرم ، وهكـذا ، وسـنذكر بعـض هـذه القضايا والمسائل تنبيهاً إلى خطورة عدم التفريق بينها ، وتصور أنها من المتماثلات ، لنكون على بينة من أمرنا ؛ تجنباً لفتح هذه الأبواب على مصراعيها دون تبصر لحقيقته وآثاره .

فمن ذلك الخلط بين:

- القوة ، والعنف والغلظة .
- الرفق واللين ، والضعف .
- المداراة ، والمداهنة .
- المصلحة ، والمفسدة .
- النصيحة ، والتشهير والإسرار ، والسكوت عن الحق .
- الغيرة ، والاندفاع غير المنضبط .
- العزة ، والتكبر .
- التواضع ، والذل .
- والتأني ، والبرود والخمول والكسل .
- الشجاعة ، والتهور .
- خوف الفتنة ، والجبن والخوف .

وكثير من الناس يصعب عليه التفريق بينهم ، فنجد من يصف الشجاع بالمتهور .

وتجد من يثني على المتهور ويصفه بالشجاع - أي خلط - والمنهج الصحيح هو تسمية الأشياء بأسمائها ، ولا يتسنى ذلك إلا لمن رزق علماً وفهماً وقدرة على وضع الشيء في موضعه ، وهذه هي الحكمة التي نتحدث عنها ، فنسأل الله سبحانه وتعالى بعد ذلك أن يرزقنا الحكمة وأن يجعل عملنا خالصاً لوجهه سبحانه وتعالى ونحن بحاجة دائماً وأبداً إلى الحكمة والنظر البعيد أشد وأولى .

وصدق الشاعر إذ قال:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني

وإذا كان يعز توافر الحكمة في فرد واحد فإن توافرها في مجموعة أفراد أحرى وأجدى وأقرب للمنال ، ولهذا علينا ألا نخالف الجماعة وألا نتفرق ولذا قال الشاعر:

رأي الجماعة لا تشقى البلاد به رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها

إن الأمة أحوج ما تكون إلى الدعاة الحكماء ، العاملين المخلصين الملتزمين بمنهج الرسول ﷺ في وقت أصبح الحليم فيه حيران ، ونسأل الله سبحانه وتعالى العفو والعافية ، فالعلاج بين أيدينا ؛ كتاب الله وسنة النبي ﷺ حيث قال ﷺ : «**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا كتاب الله وسنتي**» .

وقال ﷺ : «**قد تركتم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك...**»[1] .

وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] .

ولكن لن يفقه ذلك إلا من آتاه الله الحكمة: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٩] .

* * * * *

(١) الحاكم في المستدرك ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢٩٣٧ .

المبحث الثالث عشر
خمسون نصيحة إلى كل معلم ومعلمة

١- صلاح النية : قال ﷺ : «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى...**» الحديث[١] .

فالنية أساس العمل فانو بعملك وجه الله عزَّ وجلَّ واستشعر ثواب تعليم أبناء المسلمين ما ينفعهم في دينهم ودنياهم ، ولا يكن هدفك المكافأة المادية .

٢- اغرس العقيدة الصحيحة في نفوس الطلاب : وحب الله عزَّ وجلَّ والخوف منه في السر والعلانية والتوكل والاعتماد عليه وطاعته فيما أمر به واجتناب ما نهى عنه . فتأمل قول الرسول ﷺ لابن عباس رضى الله عنه : «**يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**»[٢] .

لا إله إلا الله ما أجمل هذه الوصية وهذا التعليم من رسولنا ﷺ لابن عباس رضى الله عنه لتنير قلبه وتكون نبراساً له في حياته وطريقاً إلى سعادته في الدنيا والآخرة . فهلا اقتدينا بالرسول ﷺ ليكون من طلابنا أمثال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

٣- حثهم على بر والديهم وإشعارهم بفضله وعظيم فائدته : وتحذيرهم من العقوق وأليم عذابه وأنه سبب من أسباب سخط الله عزَّ وجلَّ ، كما أن طاعتهما سببٌ من أسباب رضاه سبحانه وتعالى . قال تعالى : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٣] ، والآيات والأحاديث الدالة على عظيم حقيهما كثيرة فاذكرها لهم .

٤- حثّهم على أداء الصلاة في وقتها: لقوله ﷺ عندما سئل: أي العمل أحب إلى الله

---

(١) رواه البخاري .
(٢) الترمذي .

عزَّ وجلَّ؟ قال : «**الصلاة على وقتها**» [١] .

والمحافظة على صلاة الفجر والعصر ؛ لقوله ﷺ : «**من صلى البردين دخل الجنة**» [٢] . وأخبرهم بأن الصلاة لا تقبل إلا بطهارة ، ولابد من استشعار عظمة الله عزَّ وجل حين الوقوف بين يديه لأداء فريضته بخشوع وإخبات قال ﷺ : «**ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم تؤت كبيرة وذلك الدهر كله**» [٣] . وأعلمهم أن الصلاة ركن من أركان الإسلام وأنها صلة بين العبد وربه .

٥- علمهم كيفية احترام المعلمين واحترام زملائهم واحترام النظام داخل المدرسة وخارجها .

٦- كن حليماً في معاملتك لهم وحسن الخلق معهم . فقد سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال: «**تقوى الله وحسن الخلق**» [٤] .

٧- تجنب الشدة والقسوة في عقابك ولا تُعْطِ الأمر أكبر من حقه . فقد قال الله سبحانه وتعالى لنبيه : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

٨- كن متسامحاً أكثر مع طلابك فليس كل خطأ يحتاج إلى عقاب فإنهم ما حضروا إلا للتعلم منك وأنت خير معلم .

٩- كن متواضعاً لهم ولا تتكبر عليهم وعلمهم حسن اختيار الصحبة الصالحة واجعلهم يألفونك ويحترمونك .

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر ... على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالدخان يعلو بنفسه إلى ... طبقات الجو وهو وضيع

١٠- علمهم تحية الإسلام: قال ﷺ : «**لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا،**

---

(١) رواه البخاري .
(٢) رواه البخاري .
(٣) رواه مسلم .
(٤) أخرجه الترمذي .

أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام بينكم» [١] .

١١- حاول أن لا تصفهم بصفات سيئة ولا تسخر منهم ، وحذرهم من استهزاء بعضهم ببعض قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ ﴾ [الحجرات: ١١] .

١٢- علمهم الجد والمثابرة والحرص بالقول والفعل .

١٣- حذرهم من الصفات الرديئة وما نهى عنه الشرع ؛ كالنفاق والكذب والغيبة والنميمة وسماع الأغاني والحسد والغضب وهكذا .

١٤- علمهم فضل الصلاة على النبي . قال ﷺ : **«من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً»** [٢] .

١٥- حثهم على إماطة الأذى من الطريق قال ﷺ : **«لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي الناس»** [٣] .

١٦- كن داعياً إلى هدى دالاً إلى الخير سواء في الفصل أو فناء المدرسة أو في الشارع . قال ﷺ : **«من دلّ على خير؛ فله مثل أجر فاعله»** [٤] .

١٧- ازرع الثقة في نفوسهم وشجعهم على التصرف السليم والإجابة الصحيحة ، وحفزهم ولو بهدية صغيرة فقد تكون في نظرهم كبيرة .

١٨- اترك مشاكلك واهتماماتك الخارجية خارج المدرسة . وكن صافي الذهن حاضر البديهة .

١٩- لا تغضب ولا تكن عصبي المزاج وكن صبوراً .

٢٠- ذكرهم ببعض الآداب: كآداب الأكل والشرب قال ﷺ : **«يا غلام سمِّ الله، وكُلْ**

---

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه مسلم .
(٣) رواه مسلم .
(٤) رواه مسلم .

بيمينك، وكُلْ مما يليك»[١].

٢١- وآداب الشرب: سمِّ الله، اشرب بيمينك، اشرب ثلاثاً، اشرب جالساً، لا تتنفس في الإناء، لا تشرب من فيِّ السقاء، احمد الله.

٢٢- وكذلك آداب الكلام والمجلس والنوم وآداب الاستئذان واللباس والأذكار الشرعية في اليوم والليلة.

٢٣- علمهم المحافظة على كتبهم وأدواتهم الخاصة، وكذلك المحافظة على نظافة الفصل وأروقة المدرسة وفنائها.

٢٤- علمهم عدم الإسراف بالماء والكهرباء وترشيد استهلاكها وعدم العبث بأشياء المدرسة.

٢٥- عوّدهم على نظافة ملابسهم ودفاترهم. وتقليم الأظافر وقص الشعر وظهورهم بالمظهر اللائق بهم كطلاب علم.

٢٦- ابذل جهدك وسخر طاقاتك وكن لهم خير معلم ومربٍّ وأباً فاضلاً، واعلم أن التعليم رسالة دينية قبل أن تكون مجرد مهنة أو وظيفة للمعيشة.

٢٧- كن مثقفاً محبّاً للبحث والاطلاع في مجال تخصصك وفي تخصصات أخرى.

٢٨- كن على علاقة طيبة مع مديرك وزملائك وطلابك وأولياء أمورهم.

٢٩- تعاون مع زملائك ومديرك لنجاح الخطة وتحقيق الأهداف المرجوة.

٣٠- لا تؤخر تصحيح الدفاتر حتى لا تتراكم عليك.

٣١- اكتب كلمات الثناء والشكر على دفاتر الطلاب المتميزين، ومن تلتمس منه الاهتمام ومحاولة التميز، وصحح الخطأ ليتداركوا ما أخطأوا به.

٣٢- حافظ على أسرار طلابك.

٣٣- لا تيأس وتتكدر لبطء الفهم عند بعض الطلاب وعالج الأمر بحكمة فأنت مهيأ

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

تربوياً ومهنياً .

٣٤- ابدأ درسك بذكر الله عزَّ وجلَّ ، والصلاة والسلام على النبي ﷺ .

٣٥- كن مهيئاً نفسياً لشرح الدرس .

٣٦- لا تنس كفارة المجلس قبل خروجك من الفصل .

٣٧- كن منظماً في عملك وليس عيباً أن ترجع لمن سبقك في هذا المجال لتستفيد منه وتكتسب من خبراته .

٣٨- لا تستغل أدوات المدرسة لأغراضك الشخصية وأعمالك الخاصة .

٣٩- لا تظلم الطلاب بخطأ طالب وتعاقب من لا ذنب لهم لسوء أدب صدر من طالب منهم .

٤٠- واعلم أن حاجة الصفوف الأولية ليست كحاجة الصفوف العليا في الوسائل ، والأسلوب والمعاملة ، والحزم ونحو ذلك .

٤١- اضبط فصلك ولا تركز متابعتك في جهة معينة أثناء الشرح وتغفل عن الجهات الأخرى ، وركز على الضعاف مع عدم التغافل عن المتميزين ووجههم فردياً وجماعياً .

٤٢- اجذب نظر التلاميذ وشد انتباههم بأسلوب أو بآخر ، وعزز مواقفهم الإيجابية ، وأثنِ عليها ووجههم التوجيه السليم .

٤٣- عليك بمراعاة الفروق الفردية بين الطلاب وإعطاء كل ذي حق حقه .

٤٤- استغل حصة الانتظار لصالح الطلاب ولا تتركها بلا فائدة فهي جزء من عملك وعمرك .

٤٥- عرفهم بنعم الله عز وجل حيث توفرت لهم سبل المعيشة والمواصلات والمدارس المجهزة بكل شيء ؛ كالتكييف ، ودورات المياه ، والمقاصف ، والملاعب ، والمكتبات ، والكتب المجانية ، والخامات ، والوسائل لكل مادة ، وأن هذه نِعَمٌ لم تكن موجودة من قبل ، ولابد من شكرها لتزيد وتدوم .

٤٦- حذرهم من التشبه بالكفار والمشاهير ممن لا يستحقون أن يكونوا قدوات؛ كالمغنين والممثلين ونحوهم، وبين لهم محاذير قصات الشعر وغيرها وعدم تقليدهم لقوله ﷺ: «**من تشبه بقوم فهو منهم**».

٤٧- حاول أن تطبق منهج وأسلوب رسولنا ﷺ وتقتدي به في كل شيء لقوله عزَّ وجل: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

٤٨- واعلم أن الأساليب والطرق تتنوع وتختلف باختلاف المراحل.

٤٩- تعاون مع مرشد المدرسة في حل مشاكل الطلاب. ومساعدتهم في تحسين مستوياتهم وتعديل سلوكهم.

٥٠- كن مكملاً لما يتعلمه الطالب في المنزل.

٥١- لا تختلف أنت وأحد المعلمين أمام الطلاب. «**وكونوا عباد الله إخواناً**»[1].

٥٢- أيقظ ضميرك بدوام الخشية والمراقبة لله ليحيا قلبك وتسمو نفسك ولتكن عندك مراقبة ذاتية.

* * * * *

(١) رواه البخاري.